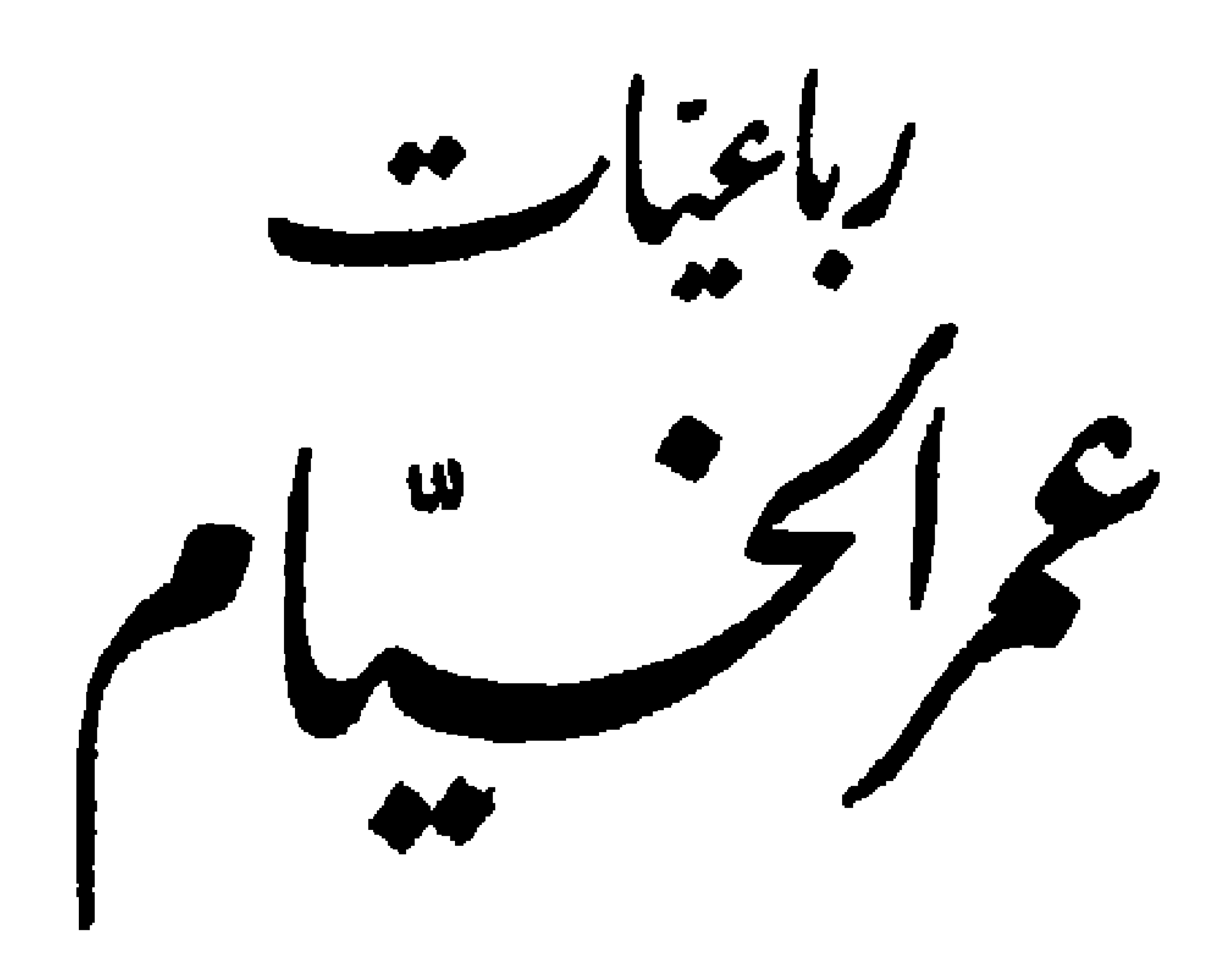


الفلكي الشاعر الفيلسوف

الفارسي

معربة نظماً

بقلم

وديع البستاني

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

ديباجة

لعمر الخيام في اميركا واوربا وخصوصاً في انكلترا وفرنسا والمانيا من هذه القارة الراقية شهرة طائرة ومقام رفيع منهما انتحل لنفسي عذراً في اقدامي على تعريب رباعياته وهي عنوان شهرتهِ واساس رفعتهِ . فقد عربتهـا في المكتبة الاهلية بلندرا حيث وجدت مائة وثلاثة وخمسين كتاباً انكليزياً وافرنسياً تفندها تفنيداً وتشرحها شرحاً سهّلا عليّ سلوك هذا السبيل على عدم المامي بالفارسية

وقد ترجمت ما ترجمت منها في موشحين سباعيين سميتهما النشيد الاول والثاني . ووضعت لها مقدمة مدار الكلام فيها على المواضيع الآتية :

عمر الخيام · — ولادته ووفاته ونسبه — نشأته — علومه واعماله — فلسفته وشعره . الرباعيات : — الرباعيات في اللغات الغربية — الرباعيات في اللغة العربية

وذيلتها بشرح مختصر وبكلمة أتحفني بها حضرة الفاضل صاحب النظرات الاستاذ السيد مصطفى لطفي المنفلوطي جعلت عنوانها « روح الخيام في رباعياته »

واني أغتنم هـذه الفرصة وأشكر له تكرمه بهذه الكلمة التي جعلتها مسك الختام وأشكر كل من شجعني من ادبائنـا الكرام على طبع هذه السباعيات برضائه عنها وارتياحه اليها

وقد ترجمتها وطبعتهـا باذلاً جهدي وغاية ما في وسعي في الامرين . « فان أحسنت فحسنة من حسنات الاجتهاد والا فحسبي ان أفتحهُ باباً يلجهُ مَن وفقهُ الله الى سبيل السداد »

مقدمة

عمر الخيام : — ولادته ووفاته ونسبه — نشأته — علومه واعماله — فلسفته وشعره — . الرباعيات : — الرباعيات فى اللغات الغربية — الرباعيات فى اللغة العربية او السباعيات

ولادته ووفاته ونسبه

يتراوح تاريخ ولادتهِ في مجـال الشك بين سنة ١٠٢٥ وسنة ١٠٥٠ للميلاد ، وقد اجمع العمريّون [١] على انهُ توفي في نيسابور عام ١١٢٣ ، ورجح عندهم انهُ نيسابوري أباً وجدّاً . وكانت نيسابور في تلك الايام ، عاصمة خراسان ، ومدينة عظيمة ، بعيدة الشهرة بتجارتها وصناعتهـا . وخراسان أنجبت غير واحد من شعراء الفرس كالفردوسي ، صاحب الشاهنامة الشهيرة ، وفريد الدين العطّار ، صاحب منطق الطير ، وجلال

(١) العمريون هم الادباء الغربيون الذين صرفوا همتهم الى درس فلسفة عمر وشعره . وفى لندرا اليوم ناد موسوم بالنادى العمرى

الدين الرومي ، وجامي ، والخاتني ، وغيرهم ممن تفتخر بهم بلاد فارس

وقد ذكره العرب قديماً وعرفهُ الافرنج حديثاً بهذا الاسم المقتضب من اسمهِ الحقيقي وهو غياث الدين ابو الفتح عمر بن ابرهيم الخيام او الخيامي . وقد لاح لاكثر مترجميهِ انهُ لقب بالخيام نسبةً لحرفتهِ او حرفة ابيهِ ، وتراءى للبعض انهُ انما اختاره لنفسهِ لقباً شعرياً متوخيًّا السذاجة والتواضع ، خلافاً للعطّار والفردوسي وغيرهما ممن اتّخذوا لهم اسماء فخرية رنانة

وذهب احدهم الى ان الخيام اسم قبيلة عربية قديمة ، وحاول أن يثبت ان هذا الشاعر الخالد عربي الاصل . وحجته في ذلك ورود ذكر قبيلة بهذا الاسم في تاريخ تلك الازمان ، وانهُ لا يُعقل ان يكون عمر او ابوه قد احترف صنع الخيام في حاضرة زاهرة زاهية كنيسابور ، وهي حرفة الرحّل واهل البادية . وأيد قوله هذا بما ورد في وصية نظام الملك من ان عمراً كان رفيقه وصديقه ايام طلبه العلم في نيسابور ، اذ لو كان أبو عُمر خياماً لما كان في طاقتهِ أن يجمع ابنه بابناء الاشراف والاغنياء

نشأته

آثرت في هذا الصدد الاقتصار على ايراد شذرة من وصية نظام الملك الآنفة الذكر :

وكان الامام الموفق النيسابوري ، رحمهُ الله ، ذا مكانة سامية ، ومقام رفيع ، واشتهر عنهُ ان كل من درس عليهِ القرآن والحديث ، موفّق يوماً الى تسنّم ذرى المجد ، والى سبيل السعادة ورغد العيش . وعلم والدي بأمره ، فأرسلني اليهِ ، لآخذ عنهُ ، وأتفقه عليهِ ، فكان يرعاني بطرف ساهر ، وكنت أنظر اليهِ بعين التجلة والاكرام . وحال حلولي بنيسابور ، عقدت عرى المودة والاخاء مع اثنين من تلاميذه اتصفا بذكاء الفؤاد ، واتقاد الذهن ، حسن بن الصباح ، وعمر الخيام . فكنا بعد الخروج من لدن الاستاذ ، نجتمع معاً ، ونستعيد ما ألقاه علينا ، ونتذاكر فيهِ ، كما كنا نتحادث ونتسارّ في أمورنا الشخصية ، معلنين النيات ، وناشرين الطوايا ، غير متكاتمين . وجاءنا حسن ذات يوم يقول : أجل ، اخويّ ، ان المعروف عن إمامنا ان الحظ نصيب كل من درس عليهِ . وعندي انهُ اذا لم يصدق هذا القول في أمر الجميع ، فلا يبعد ان تحققهُ الايام في أمر

واحد منا . فعلى مَ اذاً نتعاهد ونتواثق منذ اليوم ؟ فأجبناه على ما تروم . وتواثقنا وتعاهدنا على ان أيّنا كان الموفق المحظوظ فرفيقاه أخواه وشريكاه في أيام نعمته وعلائه . وبرحتُ نيسابور ومرّت السنون ، وتتالت الاعوام ، وأسعدتني الايام بتقلد الوزارة في زمن السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان . وجاءني اذ ذاك مقترح الميثاق وتقاضاني القيام بشروط المحالفة الثلاثية ، فسعيت له لدى السلطان ، فقربهُ منهُ ، وأكرم مثواه . ولكن أبى حسن الاّ ان يكون خوّاناً غدّاراً ، وأبا مكرٍ ودهاء ، فراح يعيث في البلاط سعاية ووشاية ، وما عتّم ان ظهرت خفاياه ، ونشرت طواياه ، فأُنزل عن منصبه محتقراً مرذولاً . أما عمرٍ فاذ جاءني وذكّرني بالعهد الذي بيننا منذ عهد الشباب ، أظهرت له كل وفاء وولاء ، ووعدتهُ ان أدخله في خدمة السلطان ، فبادرني بقوله : بربك لا تفعل . وان خير ما تجود بهِ على صديقك القديم ، أن تضمن له العيش في ظلك الوارف ، مكفيًّا مؤونة الكسب ، ومتفرّغاً لخدمة العلم والفلسفة وممارسة الحكمة والفضيلة . فأعجبني ذلك منهُ ، وحققتُ له هذه الامنية ، وجعلت له راتباً سنوياً مقداره ١٢٠٠ مثقال من الذهب يتقاضاه من بيت المال

علومه وأعماله

ان اول من ذكر الخيام من الفرس تلميذه الشاعر النبيل المعروف بخوجه نظامي ، وذلك في احدى « مقالاته الاربع » حيث يدعوه « حجة الحق » ويجعله في المرتبة العليا بين الفلكيين وأساطين العلم

فقد كان الخيام رياضياً ، وفلكياً ، وعالماً طبيعياً ، وشاعراً وفيلسوفاً معاً . وآثاره الخالدة شاهدة له في جميع ذلك . فمن جملة تآليفهِ رسالة في الجبر والمقابلة كتبها في العربية ، وقد ترجمت الى الافرنسية وطبعت في باريس عام ١٨٥١ . وله ايضاً بضع رسائل اخرى في المساحة والمكعبات تدل على تضلعه من العلوم الرياضية ايما تضلع . ولا غرو فلو لم يكن رياضياً كبيراً ، لما كان فلكياً عظيماً لدرجة ان انتدبهُ السلطان ملكشاه لاصلاح التاريخ الفارسي فأصلحهُ وتركه يضارع بصحته التاريخ الغريغوري . ومن جملة تصانيفه الفلكية جدول الارصاد الذي سماه زيجي ملكشاهي نسبة الى هذا السلطان وقد ذكره صاحب كشف الظنون (١ : ٤٠٤) . وله ايضاً عدة تصانيف في العلوم الطبيعية واخرى في علم ما وراء الطبيعة

فلسفته وشعره

أجل كان الخيام رياضياً يعالج الارقام ويضرب أخماسها باسداسها ، وفلكياً يساهر النجوم ويرصد ثوابتها وسياراتها . ولكن علم الارقام لم يكن ليشغله عن علم الكلام ، ولا كان سير النجوم ليلهيه عن سير الانام : فقد كان في عزلته يستعيد رائد الطرف من مسارح النجوم والاقمار ، ويحل عقال الفكر من مشكلات الأتساع والأعشار ، وينظر حوله ، فيرى من الطبيعة نباتاً نامياً ، ونهراً جارياً ، وطائراً شادياً ، ومن الناس جائراً عاتياً ، ولئيماً مداجياً ، وتقياً مرائياً ، فيطرق مفكراً في شأن الانسان ومصيره ، معتبراً بجهله وغروره ، فيتراءى له الوجود فانياً ، والحاضر ماضياً ، والمستقبل حاضراً ، فكان بذلك فيلسوفاً وشاعراً

وُلد الخيام فيلسوفاً ، وعاش عيشة الفيلسوف ، وشاعراً ، وعاش عيشة الشاعر ، ومات فيلسوفاً وشاعراً : والرباعيات هي سفره الفلسفي الجليل ، وأثره الشعري الخالد . ولا بد لنا دون تفهم نظرياته الفلسفية وادراك خيالاته الشعرية من النظر الى حاله وحال زمانه نظر المفطور على احقاق الحق وازهاق الباطل

كانت الصوفية لذلك العهد في إبّان انتشارها ، وكان دعاتها واتباعهم ، بين مبتدع بدعة ومؤمن فيها ، ومختلق ترّهة ومقبل عليها . فكانت ملابس التدين والتقشف تلتبس بوشاح الخشية والتقوى ، وكانت أثواب زهدهم وريائهم ، تشف عن عريهم من الورع المحمود وخلوّهم من اخلاص العابد للمعبود — وكان الخيام ذا فكر ثاقب ، ونفس زكية ، فلم تغشَ بصيرته حجب التضليل ، ولا انعقدت لكنته بحجة القال والقيل ، فراح يزيّف أقوالهم ، وينتقد أعمالهم ، ويرميهم بكل سهم صائب من الحقيقة كبدها ، وراحوا يرمونهُ بالكفر والالحاد ، ويسلقونهُ بأسنة ألسنة حداد . ولم يكن له الا ان يحذرهم حذر المسافر من وحوش الوعر وآفات الغدر ، اذ ثبت لديهِ ان الحياة سفرٌ ومسير أوله المهد وآخره القبر

هذه هي حاله وحال أهل زمانه على زعم البعض من مترجميه ، وهـذا ما إخاله كان دأبه وشأنه ، وما أراه مجارياً للرباعيات في مغزاها ومرماها

وقد زعم بعضهم ان الخيام كان فيلسوفاً مادّياً كلوقريشوس ، وانهُ نظر نظره في الوجود ، فألفى الحيـاة أمداً معلوماً واجلاً مصروماً ، الاّ انهُ خالفه في الدعوة ، فلم يقـل قوله : « كلوا

واشربوا اليوم فغداً تموتون » بل قال : اسكروا وتناسوا هموم الحياة ، واغتنموا الفرصة قبل الفوات . ودليلهم في ذلك اكثاره من ذكر الخمرة والكأس في رباعياته

وزعم آخرون ان الخيام كان صوفيًا بحتاً ، وانهُ كان يتغزل بالخمرة تغزلاً ويريد بهـا العزة الالاهية ، شأن الفارض من شعراء العربية ، وحافظ من شعراء الفارسية

فهل كان الرجل سكيراً متهتكاً ، أم فيلسوفاً نزيهاً عفيفاً ؟ سؤال كثرت الاجوبة عليه ، والويل من كثرتها ، ومشكلةٌ عالجها كثيرون ولم يوفقوا الى حل عقدتها

وهنالك القائلون ان الرباعيات منسوجة على منوال اللزوميات ، وان الخيام تلميذ أبي العلاء في أفكاره ، وخلفه في مبادئه وآرائه . ولا شك ان أوجه الشبه بين أقوال الرجلين كثيرة واضحة ، ووجه الاحتمال جليٌّ ظاهر . فقـد كان عمرٌ ضليعاً من العربية وعلومها وآدابها ، بل كان يؤلف وينظم فيها . ولكن ذلك لا يسوّغ لنـا اتهام شاعر الفرس بسرقه أفكار شاعر العرب . فان القول المشترك بينهما تصوير حقائق وحجج وبراهين عقلية ، مصوغة في قوالب سحرية ، وليس من قبيل الاستعارات والكنايات وضروب البديع الخيالية ، التي لا فخر

الا لمبتكرها والسابق اليها . واذا اقتصرنا في الحكم على اعتبار التقدم والتأخر زماناً ، فلا يسعنا اذ ذاك الآ ان نعرّي حتى المعرّي من فضله ونتهمه بالأخذ عمن سبقه من فلاسفة اليونان والرومان المتقدمين

ومن يقارن بين اللزوميات والرباعيات يرَ ان صاحب الاولى وصاحب الثانية يرميان الى اغراض متقاربة متشابهة : فكلاهما يقول بخلع ثوب الريآء ، واطّراح البدع والترهات ، وتحكيم العقل في أمور الدين ؛ وكلاهما يدعو الى الزهد في متاع الدنيا واحتقار حطامها ، ويشدد النكير على ظلاّمها وطغامها ؛ وكلاهما ألمع الى النظرية المادية التي تناولها فلاسفة القرن التاسع عشر وعلماؤه وراحوا يؤيدونها بأبحاثهم واكتشافاتهم — أريد تلك النظرية المضمنة قول أبي العلاء :

والذي حارت البرية فيهِ حيوان مستحدث من جماد

والواردة على غاية ما يكون من الوضوح والجلاء في كثير من اقوال الخيام كما سترى

واذا ذكرنا ان الخيام كان مطلعاً على علوم زمانهِ ، بل مضيفاً اليها استنباطاتهِ واكتشافاتهِ واختباراتهِ ، حق لنا ان نرجح انهُ كان في غنىً تام عن الاقتباس من شاعر المعرّة وفيلسوفها .

وقد أثبت البحاث الغربيون ان علوم اليونان وفلسفتهم كانت لعهد الخيام منقولة الى العربية ، متداولة بين ايدي قرائهـا ، فكان الفارابي قد نقل فلسفة افلاطون ، وكانت اقوال افلاطونيوس (او الشيخ اليوناني او افلاطون المصري كما دعاه الفرس) معروفةً مفهومةً لدى علمـاء الفارسية . فلأولى بنا أن نحسب النيسابوري مستمدًّا من « جمهورية افلاطون » من أن نلبسهُ عار السرقة من لزوميات شاعر المعرّة

ولا يذهبنَّ عنا ان بعض الرباعيات منسوب الى عمر الخيام وهو براءٌ منها ، وذلك لاسباب شتى سنورد شيئاً منها في الكلام التالي على « الرباعيات » . ولنختم هذا المقال بترجمتهِ الواردة في صفحة ١٦٢ من « تاريخ الحكماء » لابن القفطي ، فنرى ان العرب كانوا يرمونهُ بالمروق والخروج عن الدين كما رموا المعري من قبله :

(امام خراسان وعلامة الزمان يعلم علم اليونان ويحث على طلب الواحد الديّان بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الانسانية ويأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية . وقد وقف متأخرو الصوفية على شيءٍ من ظواهر شعره فنقلوهـا الى طريقهم وتحاضروا بها في مجالساتهم وخلواتهم وبواطنها

حيّات للشريعة لواسع . ومجامع للاغلال جوامع . ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما اسرّه من مكنونه خشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه وحج متاقاة لا تقية وابدى اسراراً من سرار غير نقية . ولما حصل ببغداد سعى اليهِ اهل طريقتهِ في العلم القديم فسدّ دونهم الباب سدّ النادم لا سد النديم . ورجع من حجه الى بلده يروح الى محل العبادة و يغدو و يكتم اسراره ولا بد أن تبدو . وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة و يضرب به المثل في هذه الأنواع لو رزق العصمة . وله شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه وتكدر عرق قصده كدر خافيه)

وقد أعجبني في هذا الصدد قول احد مترجميهِ الغربيين : ان الخيام بسعة علمه واطلاعه كان مسلماً طليق الفكر من قيود التقاليد وشديد الجرأة على المجاهرة باعتقاده المطابق للمعقول ولو جاء مخالفاً للمنقول شأن السواد الاعظم من علماء المسيحيين اليوم الذين يصلون رجال الدين حرباً عواناً و يرمون الرؤساء الروحيين بأسهم الانتقاد والتثريب

وقبل الانتقال الى « رباعياتهِ الفارسية » هاك نمطاً من أشعاره العربية . وقد عثرت على هذه الابيات في الجزء الثامن

عشر من مجلة الهلال الغراء في سياق مقالة عنوانها «عمر الخيام» بقلم عيسى افندي اسكندر معلوف :

اذا رضيت نفسي بميسور بلغـةٍ
يحصلهـا بالكدّ كفي وساعدي
أمنت تصاريف الحوادث كلهـا
فكن يا زماني موعدي او مواعدي
أليس قضى الافلاك في دورهـا بأن
تعيـد الى نحسٍ جميع المساعد
فيـا نفس صبراً في مقيلك انما
تخرّ ذراه بانقضاض القواعد

***

سبقت العالمين الى المعالي بصائب فكرة وعلو همه
فلاح بحكمتي نور الهدى في ليـالٍ للضلالة مدلهمّة
يريد الجاحدون ليطفئوها ويأبى الله الا ان يُتمه

***

العقل يعجب في تصرفهِ ممن على الايام يتكلُ
فنوالهـا كالريح منقلب ونعيمهـا كالظل منتقلُ

الرباعيات

لم يؤثر عن الخيام من منظوم في الفارسية الا بعض مقطعات تسمى بالرباعيات ، لان بعضها مؤلف من أربعة أشطر جميعها على قافية واحدة ، والبعض الآخر من أربعة أيضاً الاولان والاخير منها على نفس القافية والثالث مستقل تماماً

فمثال الضرب الاول :

١ مائيم ومي ومصطبة وتون خراب
٢ فارغ .زاميد رحمت و بيم عذاب
٣ جان ودل وجام وجامه پردرد شراب
٤ آزاد زخاك وباد اوز آتش وآب

وترجمتها الحرفية :

١ هوذا نحن وهوذا الخمر ودكة الشرب والكانون الخَرِب
٢ وغير مكترثين بالرحمة ولا بخوف العذاب
٣ هاك نفوسنا وقلوبنا وكؤوسنا وأثوابنا مملوءة بثُفل الخمر
٤ وها كنا مستقلين عن التراب والهواء والنار والماء

ومثال الضرب الثاني

١ قرآن كه مهين كلام خوانند اورا

٢ كه كاه نه بر دوام خوانند اورا
٣ در خط پياله آيتى هست مقيم
٤ كاندر همه جا مدام خوانند اورا

وهذه ترجمتها :

١ أما القرآن الذي يسمونه الكلام العلوي المنزل
٢ فيقرأونه في الفترات وليس على الدوام
٣ وأما الآية المحفورة على حافة الكاس
٤ فتلك يقرأونها في كل زمان ومكان

وقد أوردت هذين المثالين بياناً لماهيّة الرباعية الفارسية ، وهما السابعة والسادسة في أقدم نسخة خطية . ولكن لننظر اليهما ثانية من الوجهة المعنوية ، فنرى ان ذكر الخمرة في الاولى وذكرها في الثانية ليسا على وتيرة واحدة . وأمثال هذا الاختلاف ، وان شئت فقل التناقض الكلي ، كثيرة جداً ، فليس قليلاً ما تجد الرباعية الكفرية نسبةً الى مغزاها ، تلو الرباعية الابتهالية نسبة الى فحواها ، فتحار في أمر الخيام ، ويتراوح حكمك فيهِ بين النقيضين ، شكه ويقينه ، وكفره ودينه . فلا بدّ اذن من كلمة في الرباعيات وتاريخها . فانها مجموعة أفكار تناقلتها العصور ولعبت بها الاغراض والاهواء كل ملعب ؛ وقد اعتراها من

الحذف والابدال ، وشابها من المكرر والدخيل ، ما ترك أمرها مجالاً للبحث والتنقيب ، ومضماراً يتبارى فيـهِ ادباء الغربيين ايما مباراة

وها قد مضى نحو نصف قرن وهم يستقصون أخبـارها ، ويقصّون آثارهـا ، وللآن لم تعثر أيديهم على النسخة الاصلية منها ؛ وأقدم نسخة وجدوها هي النسخة المنسوبة الى سر اوسلي المحفوظة في مكتبة بولدين باكسفورد ، وفيها ١٥٨ رباعية فقط. وكيف لا نحار اذ نسمع ان في كيمبردج نسخةً اخرى أثبت فيها ثماني مائة رباعية ورباعية ؟ أما النسخة الاوسلية فمع انها الاقدم والاقرب الى زمن الخيـام ، فانها مكتوبة منذ سنة ١٤٦١ اي بعده بثلاثة قرون ونصف تقريباً . ويوجد في المكتبة الاهلية بباريس نسخة تتضمن ٣٤٩ رباعية وهي أحدث من الأوسلية ومكتوبة في أوائل القرن السادس عشر (١٥٢٨ م) . وفي المكتبة العمومية في بنكيبور نسخة عدد رباعياتها ٦٠٤ . وهنالك نسخ كثيرة مختلفة في عدد رباعياتها ونوعها منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر

وقد كاد يرسخ في أذهان عشاق الرباعيات ان كل مجموعة منسوبة الى عمر الخيام هي من نفثات يراع ذلك الرياضي الفلكي

الفيلسوف الشاعر ، لولا ان ظهر في عام ١٨٩٧ مقال للاستاذ الروسي تسكوفسكي ، أثبت فيهِ ان اثنتين وثمانين منها واردة في دواوين غيره من شعراء الفرس ، وان نحو نصف هذا العدد لثلاثة من كبارهم ، هم فريد الدين العطّار ، وحافظ ، وجلال الدين الرومي ، وأما النصف الآخر فلأربعين آخرين كأبي سعيد وابن سينا والفردوسي وأنوري وعبدالله الانصاري . وقد لقبوها « بالرباعيات المتشردة » والظاهر ان مورديها في نسخهم كانوا يلفونها شبيهة بالرباعيات الخيامية ، فيضيفونها اليها بقصد او بغير قصد . ولقد زاد عددها منذ ظهور تلك المقالة فبلغ ١٠١ ولعلَّ مواصلة البحث في هذا السبيل منتهية بالقوم الى تمييز الرباعيات العمرية الحقيقية وفرزها عما سواها

اما عدد الرباعيات المنسوبة اليهِ مما ورد في النسخ الخطية فالف ومائتان ، نحو ١٠٤٠ منها مستقلة بمعناها بعض الاستقلال بحيث يمكن اعتبارها كرباعيات مختلفة . واما الرباعيات التي لا ريب ولا نزاع في نسبتها اليهِ فلا تنيف عن الاحدى عشر . وهي التي اردفها باسمهِ مَن ذكره من معاصريهِ في آثارهم الباقية حتى اليوم

وهاك اثنين من أهم الاسباب المرجحة لكثرة الدخيل

والمكرر: اما الأول فهو انهُ كان لعمر ككل صاحب رأي ومذهب اتباع واشياع يدافعون عنهُ ويغارون عليهِ، وخصوم واضداد يبغضون بهِ ويقدحون فيهِ؛ فكان الراضون عنهُ ينسبون اليهِ من نمط الرباعيات التي لا غبار عليها ولا تثريب كالتي يزهّد فيها بالدنيا وحطامها ويظهر فيها بمظهر الورع المتعبّد. وكان المتعضون منهُ يلصقون بهِ من عنديّاتهم ومختلقاتهم رباعيات لا يُشتم منها الاّ رائحة الخمر والكفر معاً. وقد ذكر ابن القفطي ان الصوفيين نقلوا الرباعيات الى طريقتهم، ولا شك انهم حوّروها وزادوا فيها حسبما شاءوا وشاءت مقاصدهم واغراضهم. واما السبب الثاني فهو ان النساخ على ما يظهر كانوا يتقاضون اجرة الخط عن كل رباعية على حدة؛ فكان يهمهم اذاً ان يزيدوها ويكثروها طمعاً بزيادة الأجر. وكلا السببين معقول مقبول، ولا سيما هذا الاخير، لأن الناظر الى تلك النسخ ليدهش لجميل خطها وبديع زخرفها؛ ولا عجب فمقتنوها كانوا امراء زمانهم، وملوك فارس وسلاطينها منذ عهد الخيام حتى العصور المتأخرة

ونحن اليوم في عصر لا يُنظر فيهِ الى مَن قال بل الى ما قيل؛ وحسبنا من هذه الرباعيات انها مجموعة خواطر شعرية،

وسجل اقوال فلسفية ، تقرأهـا فيما تقرأ ونطالع من الأدبيات الفارسية ؛ وحبذا لو كثر لدينا المنقول منها

الرباعيات في اللغات الغربية

ان السابق الى ذكر الخيام من الغربيين هو توماس هيد الانكليزي أستاذ العربية والعبرانية في جامعة اكسفورد ، وذلك منذ سنة ١٧٠٠ . ويتلوه ڤون همر النمساوي الذي ترجم بضع رباعيات عام ١٨١٨ . وظهرت بعد ذلك في فرنسا ترجمة الرباعيات الحرفية النثرية بقلم الموسيو نيقولاس زعيم القائلين ان صاحبها كان صوفيًّا

أما الشاعر الانكليزي المطبوع، فتزجرلد ، فهو الذي استوحى الخيام روحه ، ونظم رباعياته في رباعيات انكليزية خلدت اسمه في تاريخ الآداب الغربية ، وطيرت شهرته في انكلترا وأميركا وأوربا قاطبة ؛ ولا بدع ان لقبوه بعمر الخيام الغربي كما فعلوا

ظهرت رباعيات فتزجرلد لاول مرة في أواسط يناير سنة ١٨٥٩، فلم تُستقبل بجزء من الف من الاحتفاء الذي بات نصيبها بعد حين ، بل نُشرت فطُويت والقيت في زوايا النسيان ،

وأهملت وأغفلت حتى كاد يُقضى عليها بالموت (وقد قدّر لها الخلود) لولا ان قام روزتّي وكتب مقالة ضافية الذيول في شأنها ومقامها بين الآثار الادبية، وتلاه في ذلك وحذا حذوه مستر سونبرن ولورد هوتون؛ فتنبهت الخواطر اليها بعض الشيء، وتاقت اليها الانفس بعض التوق. وما قولك فيها وهي الكتيّب الصغير الذي كانت تعرض النسخة منهُ بعليمين ونصف ولا يقبل عليها أحد، فأصبحت بعد حين وكثير مَن يبذل العشرين جنيهاً فلا يجد منها نسخة واحدة. ونحو عام ١٨٦٩ ظهرت الطبعة الثانية منها مضافاً اليها بضع رباعيات جديدة. ولم يمضِ الأ سنين قلائل حتى طبعت ثالثة، وعندئذٍ أعان فتزجرلد اسمه لقرائها

وبلغت من عمرها ربع قرن فحيّاها تنسون بقصيدة كان لها من الرنّة في القلوب والوقع في النفوس ما حرّك السواكن وثار الخوامد وأحيا الجوامد، فاستيقظ النائمون، وانتبه الغافلون، وأقبلوا على تلك المنظومة يستميحونها عذراً ويعظمونها قدراً. ويلوح لي انهم لم يبخلوا ولم يقصروا في تعويضها مما فاتها، اذ انهم لم يكتفوا بان أحيوها بل خلدوها بعد مماتها. وعاش فتزجرلد حتى عاد فهذبها ونقحها مرة رابعة، ومات قرير العين مطيَّب النفس. ولا بدّ لي هنا من الاشارة الى خلة من خلال

هذا الرجل ، يعدّ أصحابها على الانامل ويشار اليهم بالبنان ، وهي انهُ كان « خلاً وفياً » . . . ولا ازيد

واذا أردت الالمـاع الى غرام الانكليز والاميركان برباعيات الخيام ، ان لم أقل ولوعهم وهيامهم فيها واكرامهم لها واعجابهم بها ، فحسبي ان أخبر بما سهدتهُ ورأيتهُ وعرفتهُ بنفسي اثناء اقامتي مدة وجيزة في لندرا ، واني في ذلك لمبتدئ حيث انتهيت ومنتهٍ حيث ابتدأت : دخلت مكتبة المتحف الانكليزي ، وهي مكتبة الأمة الانكليزية باسرها ، وتناولت برنامجها وفتحتهُ حيث اسم عمر الخيام فعددت مائة وثلاثة وخمسين كتاباً (١٥٣) ؛ بعضها طبعات مختلفة من ترجمة فتزجرلد ، مزخرفة وغير مزخرفة ، ومصورة وغـير مصورة ، ومشروحة وغير مشروحة ؛ والبعض الآخر ترجمات متنوعة لادباء مختلفين ، هذه شعرية ، واخرى نثرية ، وهذه منقولة بتصرف ، وتلك بدون تصرف ، وهذه مترجمة عن النسخة الاوسلية ، وتلك عن النسخة الكلكتية الخ الخ . وكنت أدخل المكاتب التجارية فرقاً لها عن مكاتب المطالعة وأطلب « رباعيات الخيام » والانكليز يعرفون قيمة الوقت وقيمة الدينار ، فابادَر بمثل الاسئلة الآتية : أتريدها مزخرفة « ام طبعة بسيطة » ؟ وهل

تريدها مزينة بالرسوم ام بدون رسوم ؟ وأية ترجمة تريد ؟ بقلم فتزجرلد ام غارنر ام ميكارثي ام هوينفيلد ؟ . . الى آخر ما هنالك من الاستفهامات التي لا بد منها في أمر كتاب كثرت أنواعه واختلفت اذواق طلابه وتفاوتت اختلافهم وتفاوتهم في ذات الجيب

واليك في ختام هذا المقال أسماء البعض والبعض فقط من العمريين الذين كتبوا او نظموا وقرأت نثرهم وشعرهم العمريّ واعتمدتهم واستعنت بهم في درس عمر ورباعياته : فمنهم ادورد هرون ألن ، وادورد برون ، ونيكلسن ، وشيرازي ، وهوينفلد ، وغارنر ، وميكارثي ، وهنري فرنان ، ونيقولاوس ، ولوران تايلاد ، وجارسان دي تسي ، ومسز جسي ، ومسز بورين . (والغربيات اللواتي صرفنَ ذكاءهنّ الى درس هذا الأثر الفارسي كثيرات) . اما فتزجرلد فلم أجعله حلقة من هذه السلسلة ، لان ترجمتهُ محور تدور عليهِ تآليف متعددة لادباء كثيرين . وكذلك لم أذكر أحداً من الالمان ، لأني لجهلي الالمانية لم اطالع ما كتبوا ، وما أنا الا مشير الى من اطلعت على مؤلفاتهم الخيامية من الانكليز والاميركان والفرنسيس . ولعله كان يحسن بي ان اذكر بعض المصورين الذين زينوا

الرباعيات بالرسوم الخيالية الممثلة لمعانيها أحسن تمثيل ، ولكنني أختص منهم بالذكر جلبرت جيمس الذي نال قصب السبق في مضمار الاجادة في تخيل هيئة الخيام وتصوّرها – وهو صاحب طراز الرسوم التي تتخلل السباعيات، وقد اكتفيت بالقليل منها

الرباعيات في اللغة العربية – السباعيات

اريد بالسباعيات هذين النشيدين اللذين عنيت بتضمينهما روح الخيام التي ضمنها رباعياته . وعساني لم أظلم تلك الروح بنقلها من بيت فارسي الى بيت عربي بل من رباعية الى سباعية . فعهدي باللغتين شقيقتين تتبادلان مواطن الافكار ومساكن الخيال . وها الأثران الفارسيان أصلاً — ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة — لا يكادان يُفرقان عن الآثار العربية أصلاً . ولست لأدعي امتلاك زمام اللغتين كعبدالله بن المقفع الذي بتنا نسميه صاحب كليلة ودمنة لا ناقله او مترجمه وأنا لا اكاد أعرف من الفارسية حرفاً واحداً . بل جلُّ قصدي الاشارة الى ما بذلتهُ من الجهد وأفرغتهُ مما في الوسع في درس الرباعيات بترجماتها المتقنة الانكليزية والافرنسية ، نثريّها وشعريّها ، وحرفيّها وغير حرفيّها

فقد ذكرت في كلام سابق انني وجدت في المكتبة الاهلية بلندرا ١٥٣ كتاباً في « عمر الخيام ورباعياته » وهنا أقول انني انتخبت من تلك الكتب ما ألفيتهُ يسدّ حاجتي ويقضي لبانتي وما ودّعت المكتبة شاكراً ذاكراً الاّ وقد تمّ لي نظم مائة سباعية ، عدت فحذفت عشرين منها لسبب يسهل استنتاجه من مراجعة الكلام المتقدم على المكرر والدخيل تحت عنوان « الرباعيات »

وقد ذكرت ايضاً ان ترجمة فتزجرلد هي الفضلى – وذلك لأن طريقته هي المثلى . ولذلك فقد اتبعتها في درس الرباعيات اولاً وفي نظمها وتنسيقها ثانياً وثالثاً . وتبييناً لطريقتـه أقول ان الرباعيات مرتبة في النسخ الخطيه المختلفة بحسب قوافيها لا بحسب معانيها ومراميها . وأغلب مترجميها ترجموها وشرحوها ، ان نثراً او شعراً وبتصرُّف او بدون تصرف ، رباعيةً فرباعية – أما هو (فتزجرلد) فبعد الفراغ من درسها وتفهّم مغازيها وادراك مرامي الخيام فيها ، فضل عنده ان يجعلها ملحمة واحدةً او نشيداً وحيداً بل عقداً فريداً ؛ فكان يقدّم ويؤخر في ترتيبها متوخياً تسلسل الافكار وانتساقها ، فجاءت منظومته بفضل حسن اختياره واصالة ذوقه بحيث اعترف له الثقات العارفون وقالوا انهُ

لو بعث الخيام من قبره في أواسط القرن التاسع عشر وكانت نفسه نفسه ولسانه الانكليزية لكان نظم رباعياته كما فعل فتزجرلد تماماً

فبعد ما وثقت من ان رباعيات فتزجرلد هي نفس الدرر الفارسية منظومة في عقد يأخذ جمال تنسيقه بمجامع العقل والقلب والنفس جميعاً عدت الى تلك الكتب التي تبحث فيها وتفندها تفنيداً وتنتقدها انتقاداً وجعلت ادرسها واطالعها بكل تؤدة وامعان . فكنت اقضي في سبيل الرباعية الواحدة ثلاث ساعات او اربعاً مقارناً بينها وبين الرباعية او الرباعيات التي تعد اصلاً لها في ترجمات هوينفلد ونيقولاس وغارنر وميكارثي واعود فاستصفي معنى السباعية الواحدة من تلك المصادر جميعاً . وكنت أتوخى في جميع ذلك الحرص على تأدية المعنى الخيامي بعينه ، بل كنت أميل الى الاقتصار على المهم من الشيء الكثير مني الى زيادة شيء من عندي

وبعد ما عدت من لندرا اخذت اغتنم كل فرصة سانحة لاطلاع مَن اعرفهُ من ادباء القطرين على هذه السباعيات فكنت الاقي منهم من الرضاء عنها والارتياح اليها ما شجعني على طبعها ونشرها . واني مقرٌّ بعجزي ومعترف بحداثة عهدي في

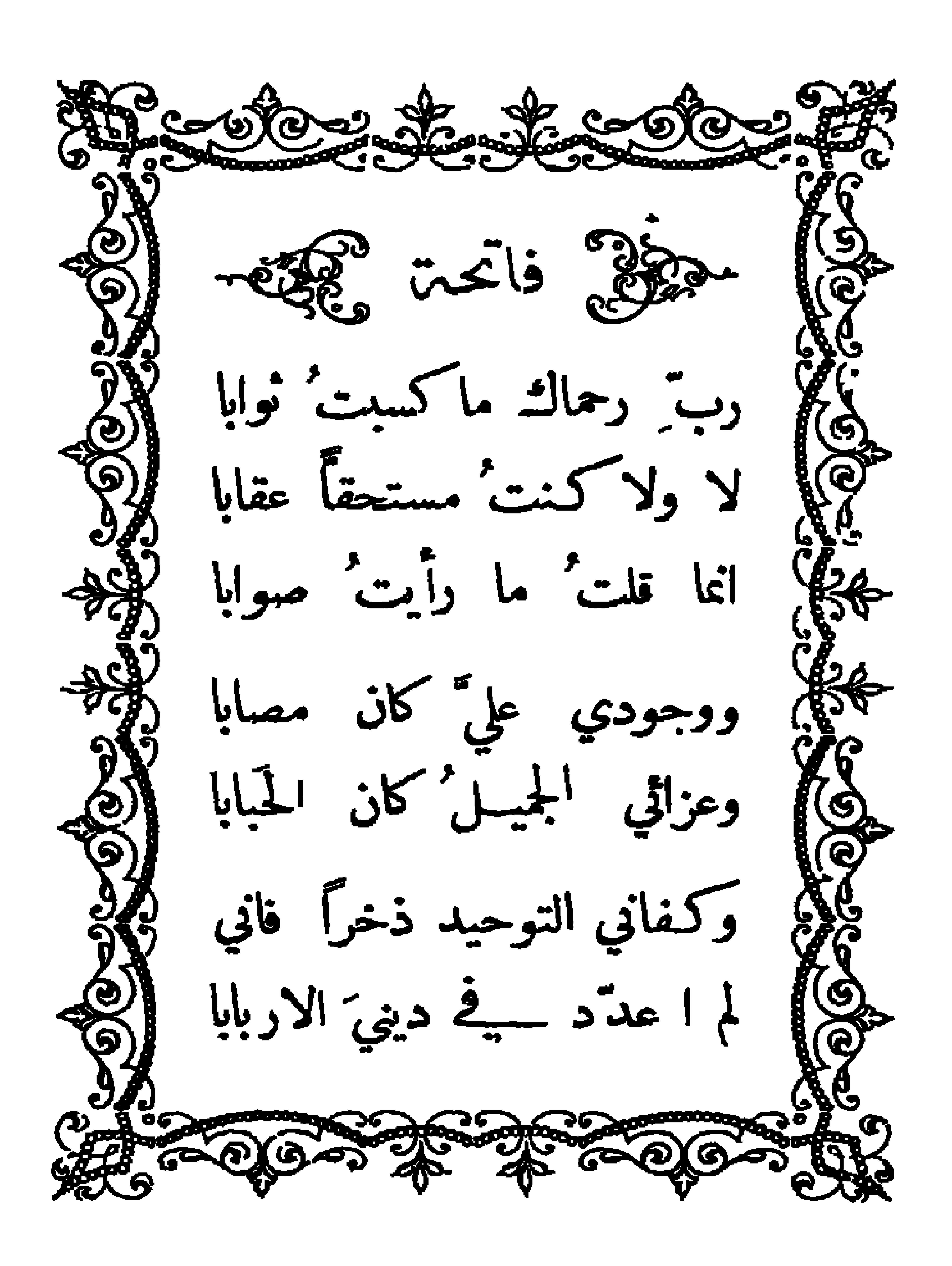
حلبة الكتّاب والشعراء وقائل قول نسيبي معرب الاليـاذة في ديباجـة الكتاب : « فان احسنت وفيهِ منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد . والاّ فحسبي أن افتحه باباً يلجهُ من وفقه الله الى سبيل السداد »

وديع البستاني

١٥ فبراير سنة ١٩١٢



النشيد الاول



فاتحة

ربِّ رحماك ما كسبتُ ثوابا
لا ولا كنتُ مستحقاً عقابا
انما قلتُ ما رأيتُ صوابا

ووجودي عليَّ كان مصابا
وعزائي الجميلُ كان الحَبابا

وكفاني التوحيد ذخراً فاني
لم اعدّد في دينيَ الاربابا

١

بتُّ في حانتي ضجيعَ المُدامِ
وقُبَيل انهزام جند الظلامِ
راعني هاتفٌ دوى في المقامِ

صارخاً بالنيام : حتى الى ما
فارشفوها وودِّعوا الأياما

قبلما تجرعون كأس حِمامٍ
راحُها علقم أُسيغ شرابا

٢

حلَّ عيد النيروز والأُنس حلاَّ
والنسيمُ الشافي العليلُ أَبلاَّ
وثغور الازهار ترشف طلاَّ

صاح لاحت في دوحنا يد موسى
صاح مرت بالروض انفاس عيسى

عاد فصل الربيع والنفس طابتْ
صاحِ والعيش والسلافة طابا

٣

وليالي داوود ليست تعودُ
والمغني رهن الفنا والعودُ
قم انظر فاليوم أزهر عودُ

فوقه بلبل يغني لوردِ
شفّه السقم من غرامٍ ووجدِ

يا حبيباً في وجنتيهِ اصفرارٌ
عاشتِ الخمرُ لا ذبلتَ اكتئابا

٤

مرَّ بي عاشق الورود صباحا
بعدما زار نرجساً وأقاحا
وشذا الروض من جناحيه فاحا

فالرَّبيع الزاهي المعطّر وافى
فبكأسٍ وافوا وهاتوا السُّلافا

يا ندامى فقــد تندَّم قلبي
لربيعٍ فيــهِ عن الكأسِ تابا

۵

وربيعُ الحيـاة عهدُ الصِّباء
وحيـاتي كهذه الصهبـاء
مرُّها الحلوُ فهي طبي ودائي

وببلخٍ او نيسبورَ سأقضي
فدعوني بعضَ اللبانة أقضي

ودعوني أُسقى المُدام دعوني
قبلما يدهم المشيبُ الشبابا

٦

وارحموني فالوقتُ ليس رحيما
شيمة الوقت أن يكون ظلوما
مستهيناً ضعيفَها والغشوما

أين جمشيدْ أين كايوكبادُ
أين زالٌ زالوا جميعاً وبادوا

وكذا الورد أمس ذاع شذاهُ
واغتدى اليومَ في النعال ترابا

٧

ودَعِ الوقتَ بالورى يستبدُّ
لا مردّ لحكمه لا مردُّ
ذره فيهمْ مستأثراً ما يودُّ

واذا رُستمُ أهابَ لحرب
أو دعا حاتمُ لأكل وشربِ

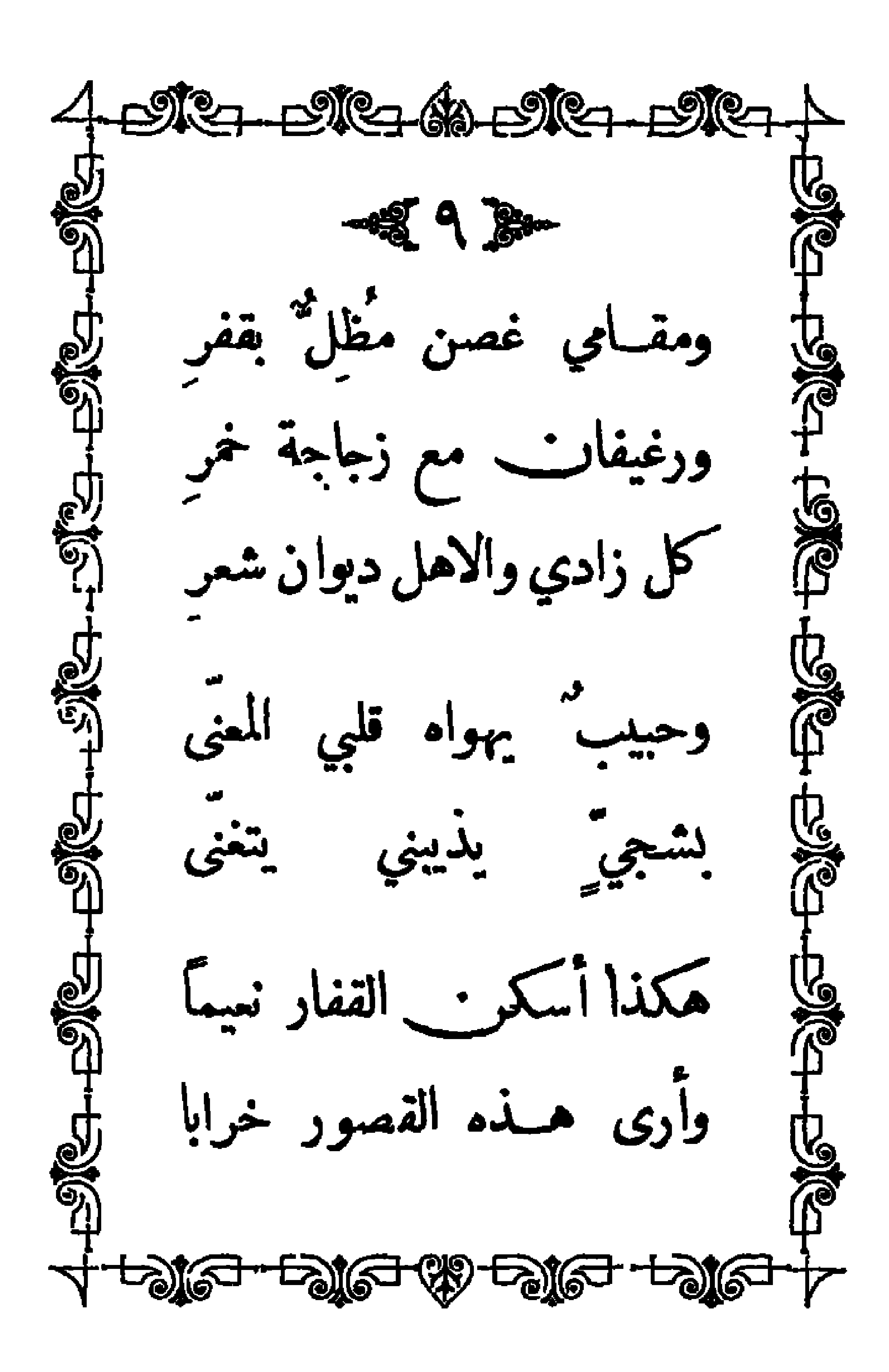
فأصمَّ المسامعَ البثْ فلا ذا —
كَ ولا ذا مَن يستحقُّ جوابا

٨

وأجبني ووافني لاعتزالِ
وابتعادٍ عن محض قيل وقالِ
ربّ قفرٍ من المظالم خالِ

ليس فيهِ عبدٌ ولا سلطانُ
هو عندي المكانُ نعم المكانُ

رُبَّ كهف تثويه نفس أبيٍّ
فاق قصراً طالت ذراه السحابا



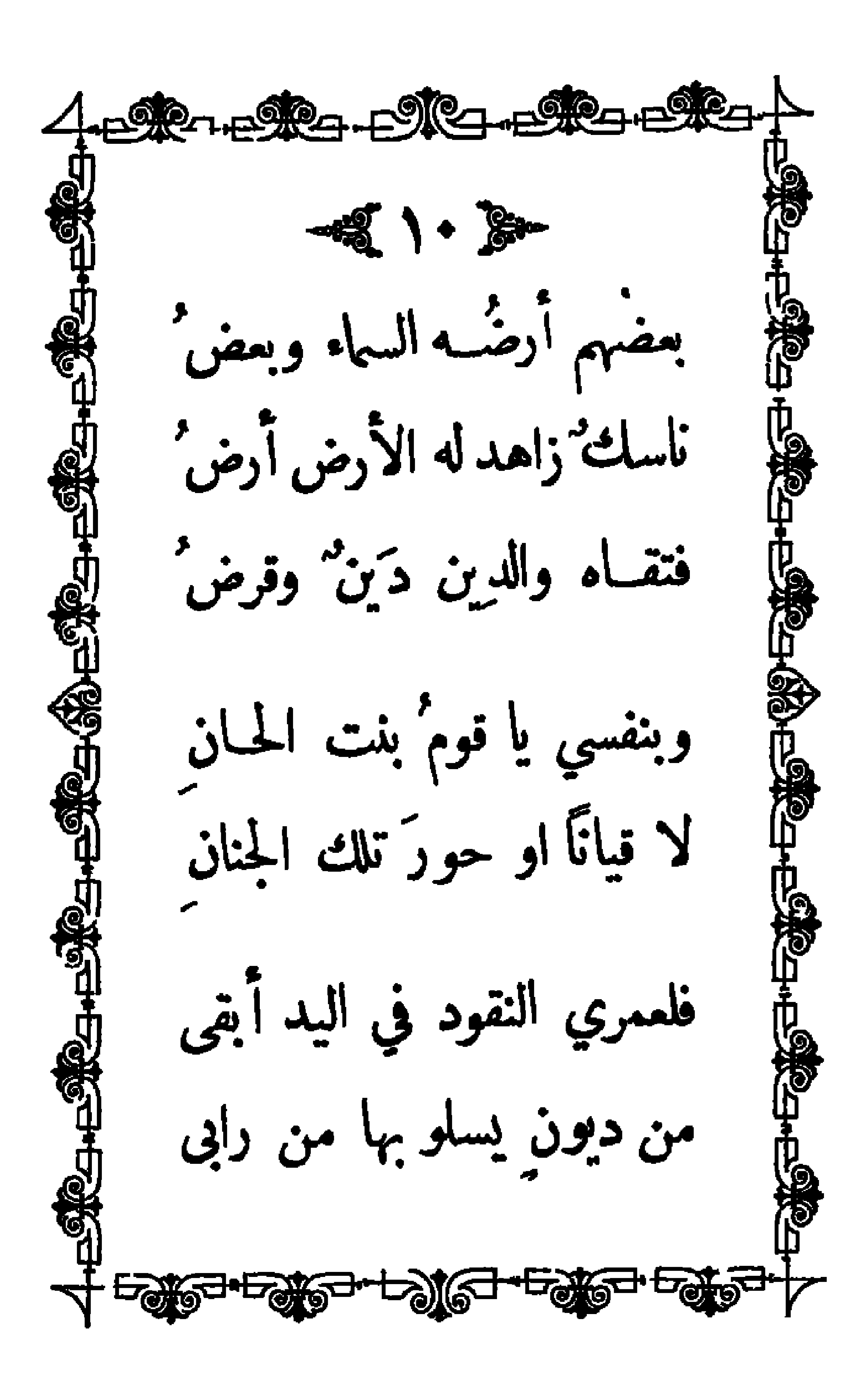
﴿ ٩ ﴾

ومقـامي غصن مُظِلٌّ بقفرِ
ورغيفان مع زجاجة خمرِ
كل زادي والاهل ديوان شعرِ

وحبيبٌ يهواه قلبي المعنّى
بشجيٍّ يذيبني يتغنّى

هكذا أسكن القفار نعيماً
وأرى هـذه القصور خرابا





١٠

بعضهم أرضُه السماء وبعضٌ

ناسكٌ زاهد له الأرض أرضُ

فتقاه والدين دَينٌ وقرضُ

وبنفسي يا قومُ بنت الحانِ

لا قياناً او حورَ تلك الجنانِ

فلعمري النقود في اليد أبقى

من ديونٍ يسلو بها من رابى

١١

يا فؤادي حذارِ حتى النسيما
إن هذا المنثور كان نظيما
فوق غصن واليوم غشّى الأديما

كم ورودٍ لثامُها الأكمامْ
كخدودٍ لها الحياء لثامُ

راودتْها ريحُ الشَّمال وعاثتْ
بلثامٍ وقبّلتها اغتصابا

١٢

يا نديمي بدِّدْ شجونَ الصدورِ
بخمورٍ يا حسنها من خمورِ
فعتيدٌ نزولنا في القبورِ

في القبور النزول دانٍ عتيدُ
وتراباً تحت التراب تعودُ

لستُ يا راجيَ المآبِ بكنزٍ
أسلكوه سبل الفناء فآبا

١٣

دارُنا صاحِ خيمـةٌ في قفارِ
ذات بابين من دجىً ونهـارِ
ومَقيـلٌ لكل غادٍ وسارِ

هاك فانظر آثار عزّ مثـاتِ
مثل جمشيدَ بعض هذي الرفاتِ

وارنُ وانظر أطلال أربُع بهرا ـ
مَ وكم من جاءوا وجدّوا ذَهابا

١٤

قصر بهرام مربعُ السلطانِ
بات مأوى الآرام والغزلانِ
ومراحَ الضِّرغام والسرحانِ

والمليك الصيَّاد صِيدَ وأُردي
ومن العرش حُطَّ حطاً للحدِ

بقرُ الوحش فوقه رائحات
غاديات تجتاحه أسرابا

١٥

رُبَّ قصر ناجت ذراه السماكا
وتراءت قبابه أفلاكا
وملوكٌ كانت تخرُّ هناكا
وتُمِرُّ الجباهَ بالاعتابِ
باحترام العبَّاد في المحرابِ

وهناك اليوم الحمامُ ينادي
يوسفاً والغرابُ يدعو الغرابا

١٦

هاتِ لي الجام يا نديمي مُترعْ
أسلُ عما مضى وما يُتوقَّعْ
حسبُ قلبي ما سمتهُ وتقطَّعْ

واسقني اليوم مُذهبَ الحسراتِ
لا تكلني لحلمِ يومٍ آتِ

فغداً ربما غدوتُ طريدَ الـ
أمس أطوي الادهار والاحقابا

١٧

كم حبيبٍ كان الجليس الانيسا
كلما جئتُ او طلبت الكؤوسا
كم حبيبٍ سلِ الثرى والرموسا

واحداً إثرَ واحدٍ ودّعوني
وأسًى يلهب الحشى أودعوني

فرغ البيتُ والمقابر ملأى
وعيوني الملأى تفيض انسكابا

١٨

ها غمام السماء يسكب سكبا
كالأحبّا على قبور الأحبّا
عَبَراتٍ يزهو بها المرجُ خصبا

وكما شاقنا وراقَ العيانا
زهر روض نرنو اليهِ الآنا

ليت شعري اذ نحن في الروض زهرٌ
أيّ عينٍ نروقها إعجابا

١٩

حيث تلقى الورد النضير الجميلا
فمليك هناك خرّ قتيلا
فادرِ إمّا قبّلت خداً أسيلا

ولكم خِلتَ ما اقتطفت بنفسجْ
وترفقتَ أنه بين عوسجْ

وهو خالٌ نام بخد فتاةٍ
بدرِ حسنٍ في ظلمة القبر غابا



٢٠

وثغور الازهار يا ذا الحبيبُ
من ثغورٍ سناؤهـا محجوبُ
لك قلبٌ وفي الأديم قلوبُ

ضجعةِ اللطف فوق هذا النباتِ
فهو نامٍ من أكبد النائماتِ

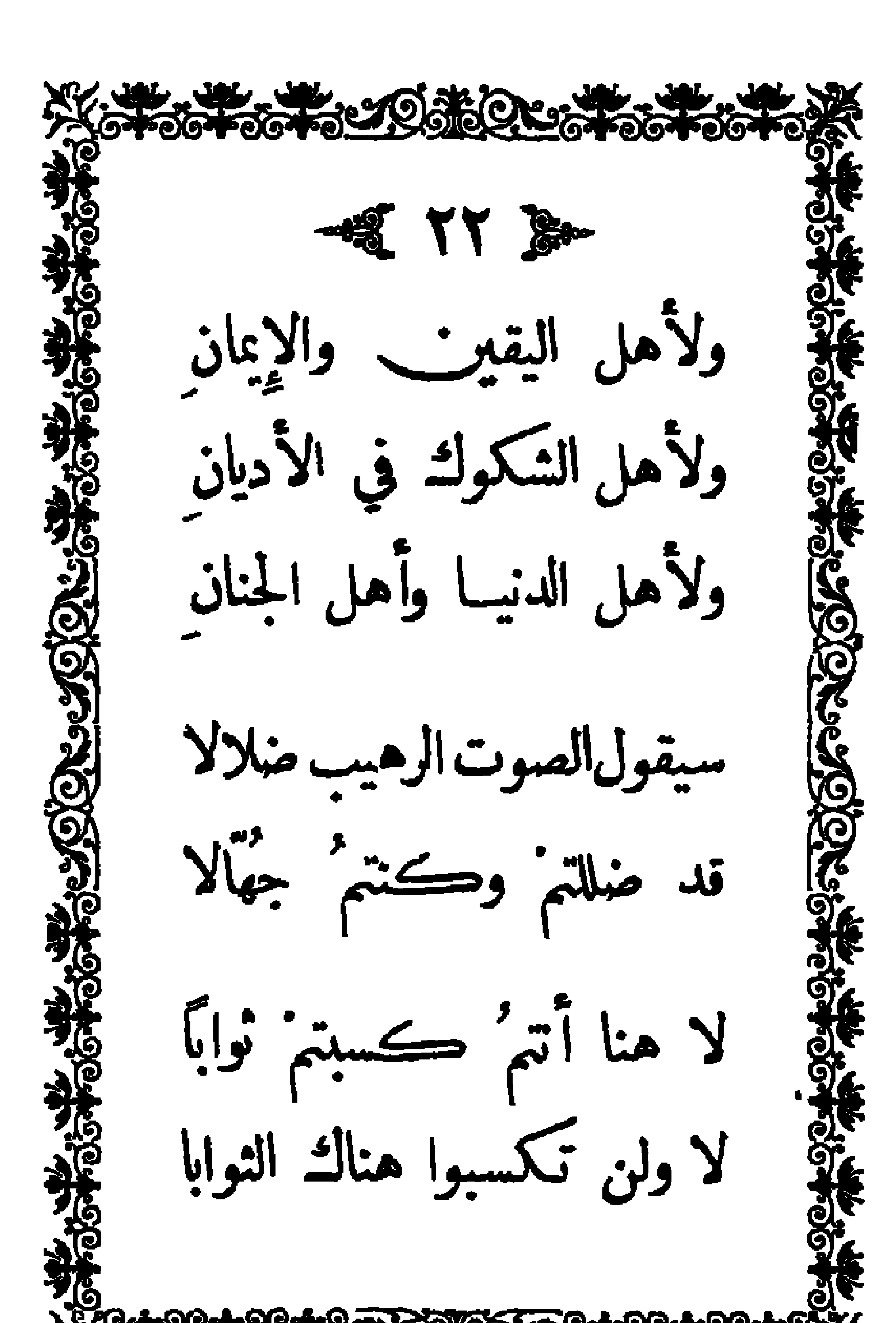
في مهودٍ فيهـا السبات عميقٌ
لا مفيقٌ منهُ بهنٍّ أهابا

٢١

لا تدع للأسى اليك سبيــلا
لا يكُ الهمّ في الفؤاد نزيلا
واغتنمهــا فالعمر ليس طويلا

وتردّد الى ضفاف المجاري
شارباً نخب نبتها باذّكــارِ

فقليلٌ ما نحن في ظهر أرضٍ
في دجى جوفها سنشتق اغترابا



٢٢

ولأهل اليقين والإيمانِ
ولأهل الشكوك في الأديانِ
ولأهل الدنيا وأهل الجنانِ

سيقول الصوت الرهيب ضلالا
قد ضللتمْ وكنتمُ جهّالا

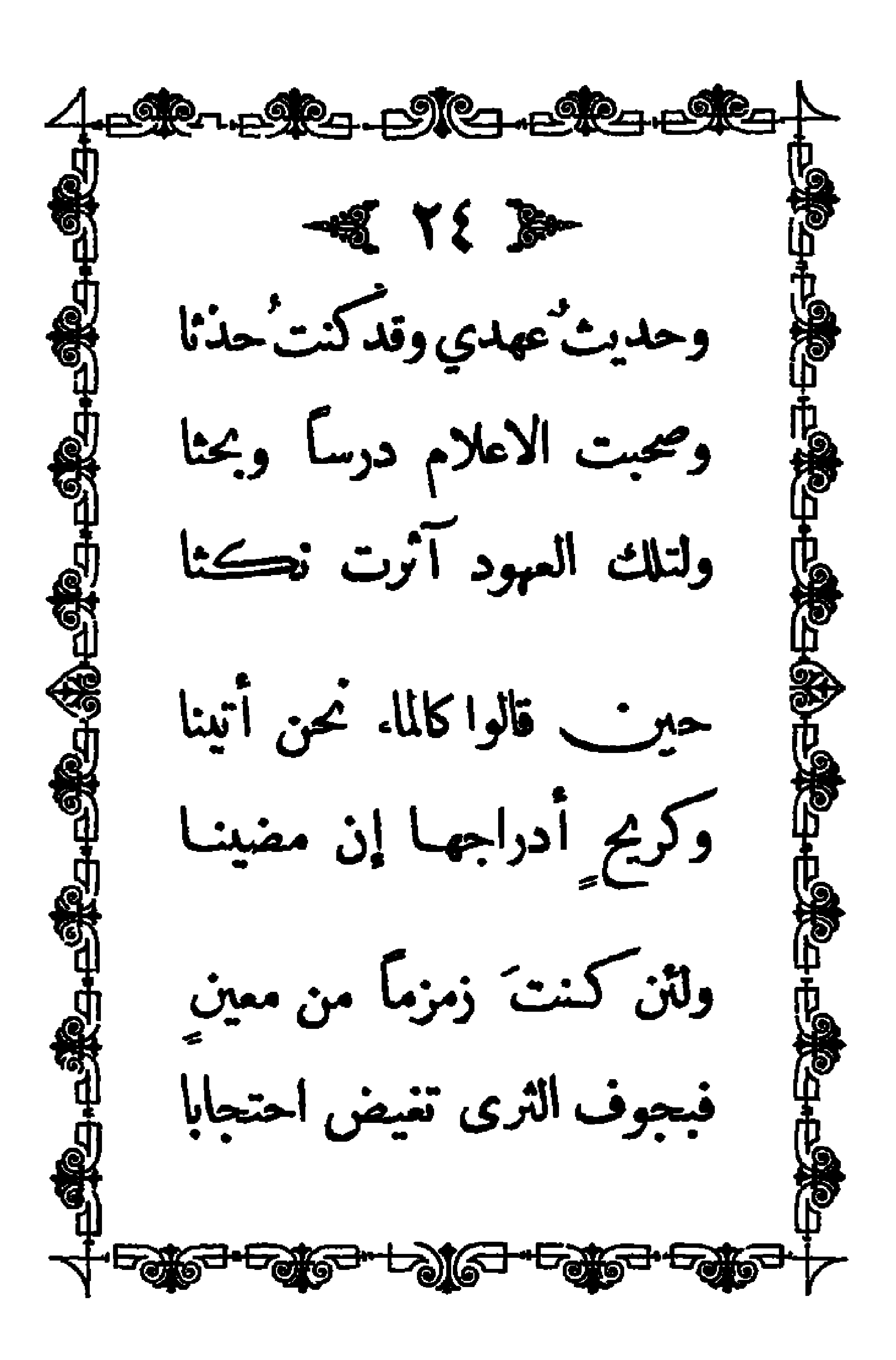
لا هنا أنتمُ كسبتمْ ثوابًا
لا ولن تكسبوا هناك الثوابا

٢٣

ولكم قام في الورى من كليمٍ
وحكيم وفيلسوفٍ عظيمٍ
وأتونا بكل قولٍ عقيمٍ

وهم اليوم في الثرى ساكتونا
لا خطابٌ يلقونه صامتونا

ملء أفواههم ترابٌ فما همْ
بعد يلقون في الأنام خطابا



٢٤

وحديثُ عهدي وقد كنتُ حدثا
وصحبت الاعلام درساً وبحثا
ولتلك العهود آثرت نكثا

حين قالوا كالماء نحن أتينا
وكريحٍ أدراجها إن مضينا

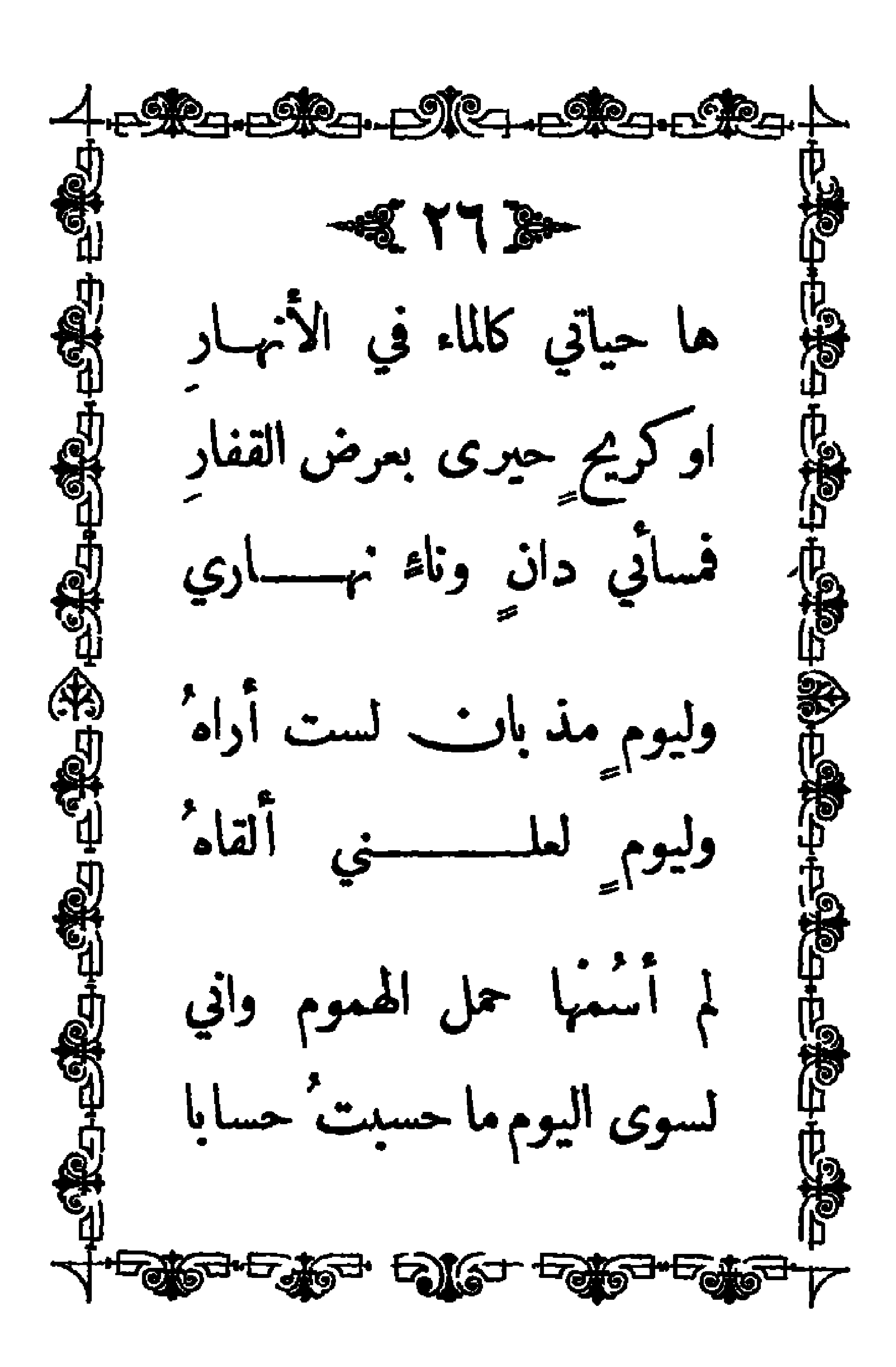
ولئن كنتَ زمزماً من معينٍ
فبجوف الثرى تغيض احتجابا

٢٥

ولفهم الاسرار والألغازِ
ذات يوم حلّقتُ تحليق بازي
في سماء المعنى الخفيّ المجازي

ولَحيني لم القَ في الأفلاكِ
لي قريناً في حلبةِ الادراكِ

ولقد عدتُ بعد ما اجتزت ذاك الـ
باب مثلي لمّا طرقتُ البابا



٢٦

ها حياتي كالماء في الأنهارِ
او كريحٍ حيرى بعرض القفارِ
فسأي دانٍ وناءٍ نهـــــاري

وليومٍ مذ بان لست أراهُ
وليومٍ لعلـــــني ألقاهُ

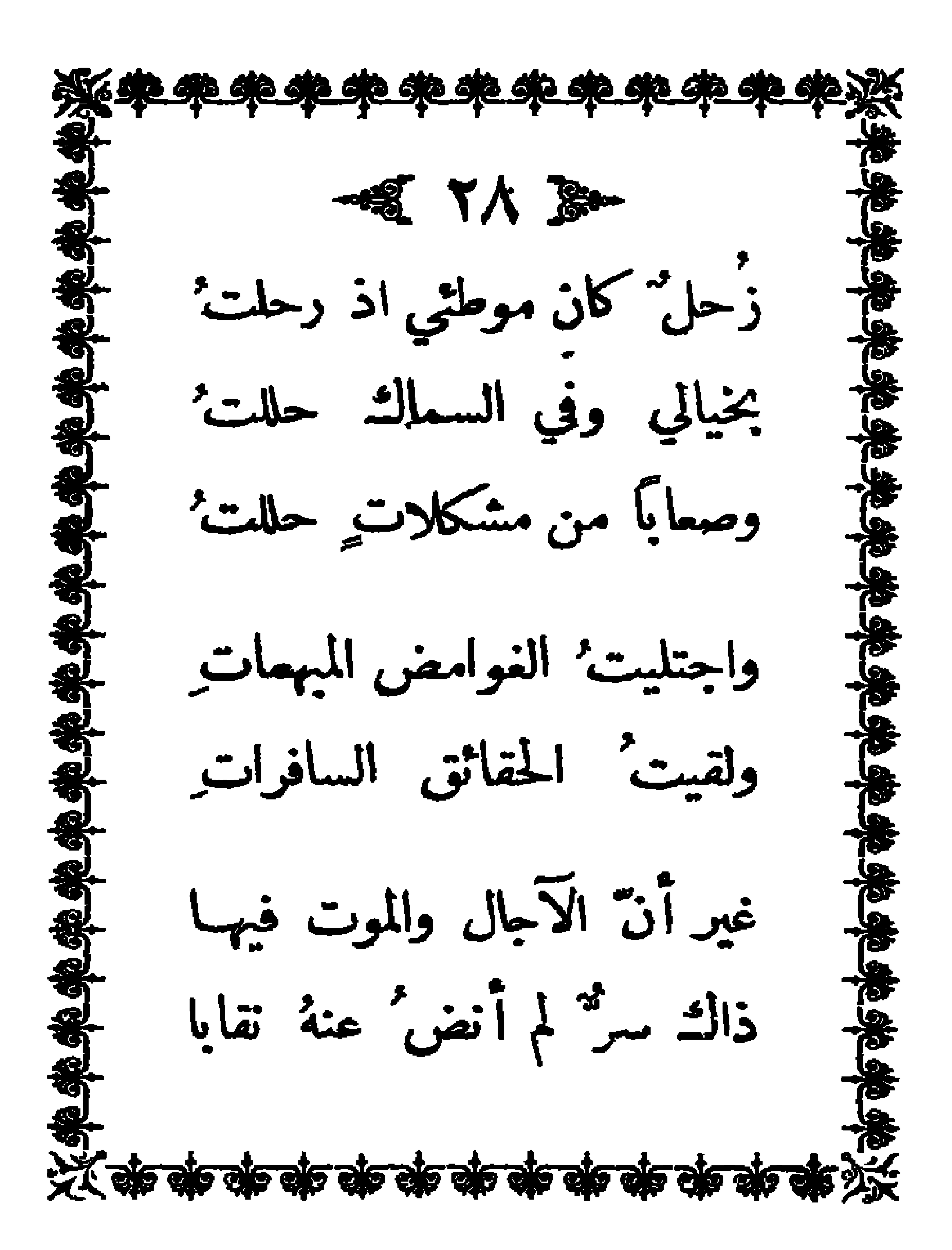
لم أسُمْها حمل الهموم واني
لسوى اليوم ما حسبتُ حسابا

٢٧

واضطراراً قد جئتُ هذي الديارا
وسأضطرّ للرحيل اضطرارا
واختياري ان استطعتُ اختيارا

ان أسرّي عن الفؤاد الهموما
في حياةٍ ملأى أسًى وغموما

فأدرها سلافةً واسقنيها
نعمةً فالوجود كان مصابا



٢٨

زُحلٌ كانَ موطئي اذ رحلتُ
بخيالي وفي السماك حللتُ
وصعاباً من مشكلاتٍ حللتُ

واجتليتُ الغوامض المبهماتِ
ولقيتُ الحقائق السافراتِ

غير أنّ الآجال والموت فيها
ذاك سرٌّ لم أنضُ عنهُ نقابا

٢٩

يا بني أربعٍ وسبعٍ الى ما
تحرجون الالباب والافهاما
وتزيدون علمنا اوهاما

ولسبعين ثم سبعاً مرارا
قلتُ قولاً أقوله تكرارا

لا سماءٌ ولا جحيمٌ تردُّ الـ
ـمرءَ ان فات أهله والصحابا

•

٣٠

وكأني بالكوز قـد كان صباً
مبعـداً آملاً دنوًّا وقربا
هائماً مائتاً غراماً وحبّاً

وكأني بقبضتيهِ ذراعا
عاشقٍ ضمّ من يحب وداعا

ذا مصير الورى : اناسٌ: فترب
فأوانٍ كانوا لها أصحابا

٣١

أمسِ أبصرت جارنا الخزّافا
يجبل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل المقدار منهُ جزافا

وكأني أُسمعت بين يديهِ
صوت ذاتِ مظلومةٍ تشتكيهِ

آه رفقاً فانت طينٌ وماءُ
ايها المرءُ لا تسمني العذابا



٣٢

أيهذا الخزاف قد فقتَ حِذقا
ولقد فزتَ في الصناعة سبقا
لك صيت يذيع غرباً وشرقا

انما ارفق فسوف تطلب رفقاً
من حريفٍ تزولُ أنت ويبقى

فبقايا الاسلاف ما أنت منهُ
صانعٌ ما يحيّر الألبــــابا

٣٣

ما جزاؤنا ما قد أراق السقاةُ
لا لعمري بل نلكم صدقاتْ
انما الترب يا ندامى رفاتْ

فليريقوا فتلكم القطراتُ
لكبودٍ تذيبها الحسراتُ

وليريقوا لعلها مطفئاتٌ
لوعةٌ في الثرى تؤجُّ التهابا

٣٤

عدم آخر الوجود فصاحِ
هات راحاً أغدو بها غير صاحِ
وأدرها ريحانة الارواحِ

لستُ شيئاً بعد الممات فهبني
لست شيئاً قبيله واصطحبني

نقتل الوقت لذةً وانشراحا
وثمولاً ونشوةً وانطرابا

٣٥

واذا جاءك الملاك المخوفُ
وهو ساقٍ في العالمين يطوفْ
وعليهِ من الدياجي سجوفُ

فاجرع الكأس لاتنهدّ جزوعا
فقضاء لا بد من ان تطيعا

وهي كأس الردى وكلٌّ نديمٌ
شاربٌ سؤرها مضيع صوابا

٣٦

ايه خيّام حين هذي السماء
يتولاّك حكمها والقضاء
أنت تقضي وللوجود البقاء

عند ذاك الساقي المخلّد يملا
كأس هذا الوجود ندًّا ومثلا

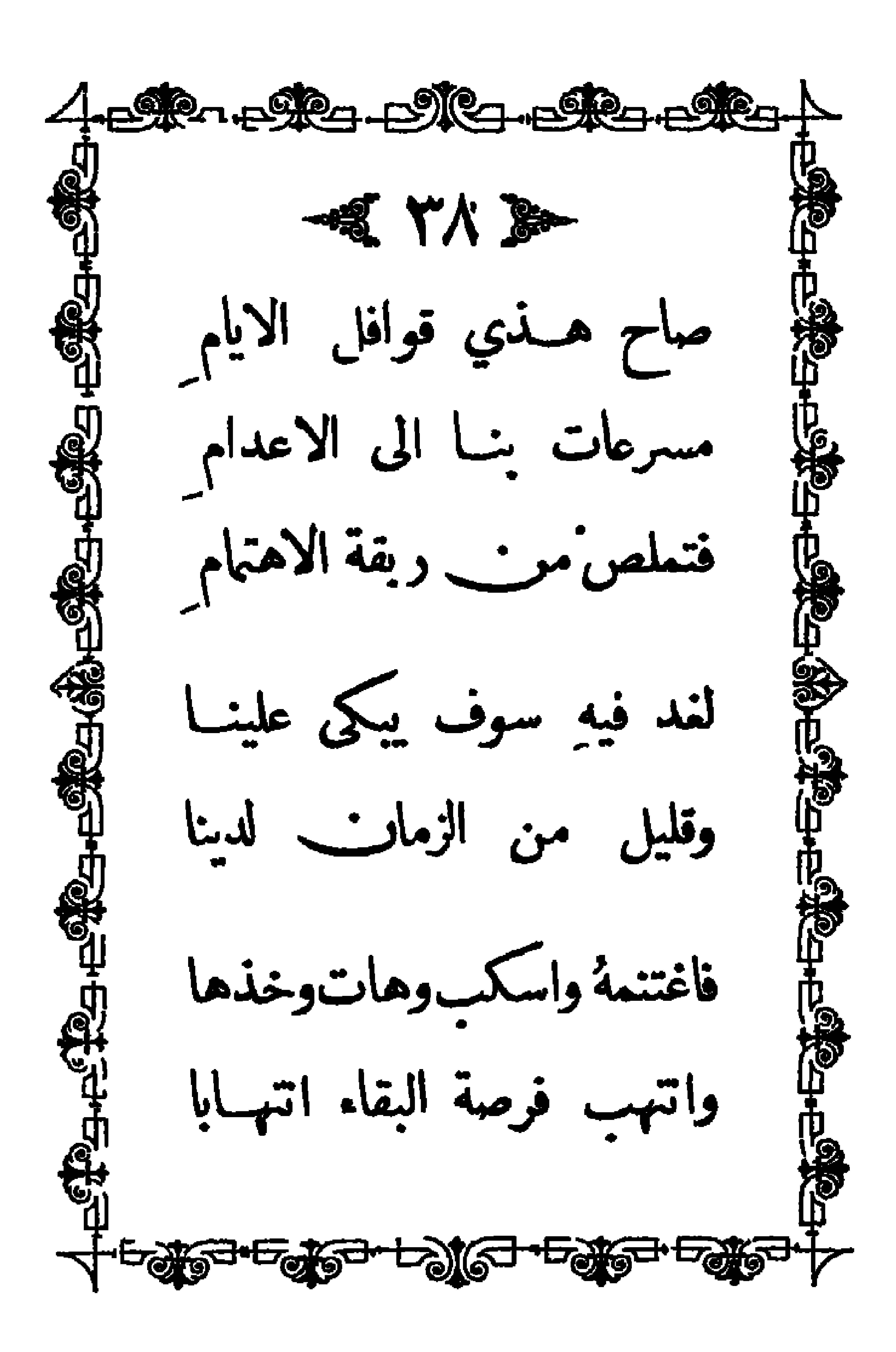
ان راح الساقي المخلّد أروا —
حُ بكأس الوجود تطفو حبابا

٣٧

لا على الكون بل علينا الباسُ
حين يرخي ذاك الحجاب فناسُ
بعدنا مثلنا نسوا او تناسُوا

ذكرنا — آه ما الوجود بدارِ
لم تكن قبلنا بذات افتقارِ

لا ولا بعدنا تتيه افتخاراً
بالذي دونه جرعنا الصّابا



٣٨

صاح هـذي قوافل الايام ِ
مسرعات بنـا الى الاعدام ِ
فتملص من ربقة الاهتمام ِ

لغد فيه ِ سوف يبكى علينـا
وقليل من الزمان لدينا

فاغتنمهُ واسكب وهات وخذها
وانتهب فرصة البقاء انتهـابا

٣٩

نفَس بين شكنا واليقينِ
نفَس بين كفرنا والدينِ
كم نفيس غالٍ وكم من ثمينِ

دونه قيمةً فقم تتمتعْ
قبلما ينزل القضاء ويقطعْ

بين هذي الحياة والموت صاحي
نفَس واحد يُبتُّ اقتضابا

﴿ ٤٠ ﴾

حدثتني نفسي وقالت فضولا
علمنّي المعلوم والمجهولا
ان تكن عالماً بسرّ الهيولى

ألِفٌ قلتُ قالت النفس يكفي
ان سر الاسرار في ذا الحرفِ

واحد واحد هو الكل في الكـ
ـلِّ وحرف سفراً حوى وكتابا

تم النشيد الاول



النشيد الثاني

١

أقبل الفجر بهجةً يتلالى

فأدرها ترزي الصباح جمالا

واعتزل حلبة الفخار اعتزالا

والأمانيَّ خلِّ والآمالا

وتأمل فروع هند الطوالا

واسمع العود واطّرح عنك همّاً

واصفُ واهنأ بالكاس عيشاً وبالا

٢

صاحِ دعهم يعللون الوجودا
ويمارون قوّماً وقعودا
وكفانا لرأيهم تفنيـــــدا

أن أتعابهم بدون ثمارِ
وأصولاً يغدون للأشجارِ

وثمار الكرم الندية روحٌ
في كؤوسٍ تكفي الندامى اعتلالا

٣

إن عقلي ضياع عقلي وديني
أن لا دين لي ويقيني
أن خمري شرَّ الزمان تقيني

فلأطلقنْ ديني وعقلي بتاتا
واخطبوا لي الى الكروم الفتاتا

بنتُ كرمٍ كريمةٌ وأبوها
رجلٌ صدرهُ يضمُّ رجالا

﴿ ٤ ﴾

أتُراهم وقد تولّت قرونُ
أعجزتهمْ كافٌ وواوٌ ونونُ
طالما تتبع الحياة المنونُ

صاحِ فالكاف كاف سكر الرحيقِ
وكذا النون نون نومٍ عميقِ

انما الواو علةٌ وهي واو الـ
ـموت واوٌ تغيّر الاحوالا

٥

والسماواتُ لم تعدّ وتدعو
فثمانٍ ان قلتَ أو قلتَ سبعُ
للاقاويل ليس فيهنّ سمعُ

صاحِ خلّ القضاء والاقدارا
سوف تقضي وما تقدّر صارا

يومكَ اليومُ أمس ولّى وأنّى
لك منهُ أو من غدٍ أن تنالا

﴿ ٦ ﴾

في خماري أبصرتُ أن مرّ قربي

شبحٌ حبهُ تملك قلبي

فتدانى وقال يا نضو شربِ

رحم الله كل من قال شعرا

رحم الله كل من ذاق خمرا

لا تخفني خيّامُ نخبي فاشربْ

وبصحوي لم آلفِ ذاك الخيالا

﴿ ٧ ﴾

صاحِ خلّ الثنتين والسبعينا
ملةً تنشد الهدى واليقينا
واشفِ داءً في جانبيكَ دفينا

وخمورٌ مشعشعاتٌ صباحا
في كؤوسٍ فقنَ السنا الوضّاحا

هنّ يجلينَ هنّ يشفينَ غمّاً
وعياءً بأنّا عليك الوبالا

٨

آه ربي رحماك رحماك ربي

بين ميلٍ ووازعٍ حار لبي

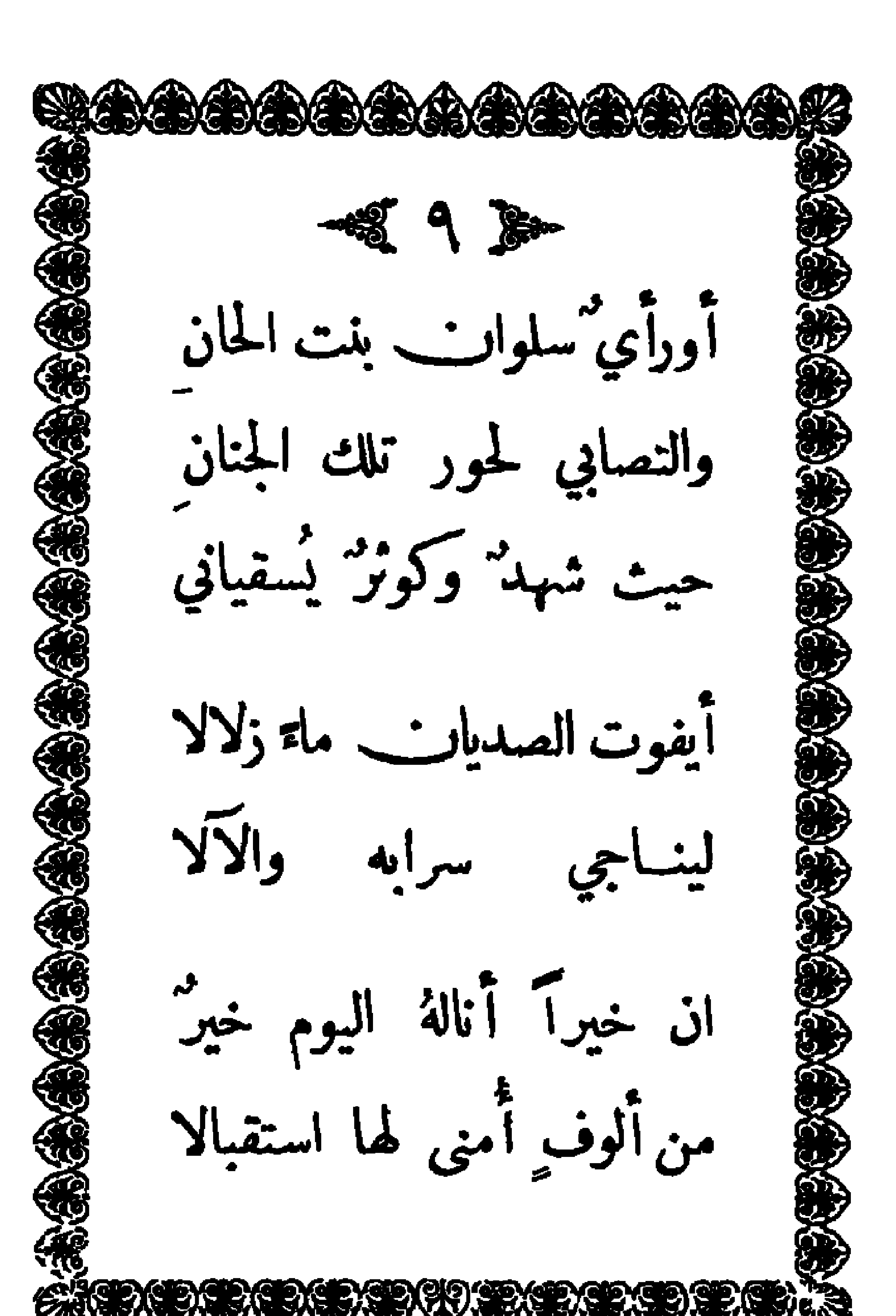
أيّ داعٍ أعصى وأياً ألبي

بنتَ كرمٍ وحسنها قد بريتا

ثم عنها وعن هواها نهيتا

فكأمري أن اقلب الكأس ياساـ

قي وحاذر ان تهرق السلسالا



٩

أورأيُ سلوانٍ بنت الحانِ
والتصابي لحور تلك الجنانِ
حيث شهدٌ وكوثرٌ يُسقياني

أيفوت الصديان ماءً زلالا
ليناجي سرابه والآلا

ان خيراً أناله اليوم خيرٌ
من ألوفٍ أُمنى لها استقبالا

١٠

عبد حسنٍ وعابد الصهباء
لا مداجٍ او زاهدٌ ذو رياء
في عداد الأخيار والأصفياء

ولئن صحّ ان للعشاقِ
والندامى مواطن الاحراقِ

عمرك الله والأنام سقوطٌ
مَن سوى الله في السمآء تعالى

١١

من تعاليم ديرهم والكنيسِ
ومتون الربّان والقسيسِ
وشروحِ الأشياخِ في التدريسِ

ووعودٍ مقرونةٍ بوعيدِ
هاك محضَ اليقين محض الاكيدِ

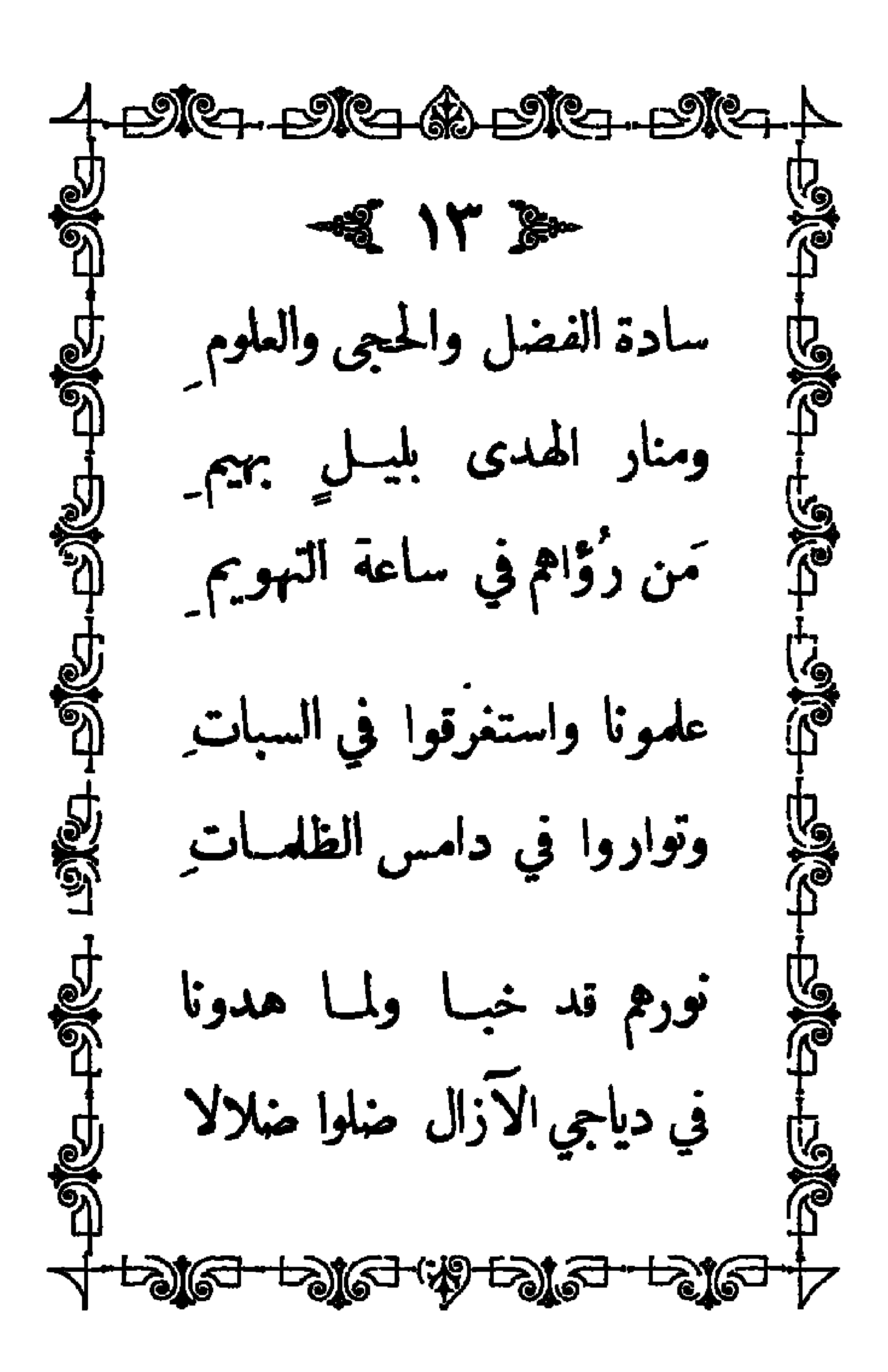
إن ذوَت زهرة الخزام وماتت
كان احياؤها المحال محالا

١٢

صاحِ ممن تجشموا الاسفارا
لرحيلٍ لم يزمعوه اختيارا
مَن رسول يروي لنا الأخبارا

فتودَّع ولا تدع في الربوعِ
متمنًى تلقاه بعد الرجوعِ

لا رجوعٌ ولا محالةَ إنّا
سوف نطوي هذا السبيل ارتحالا

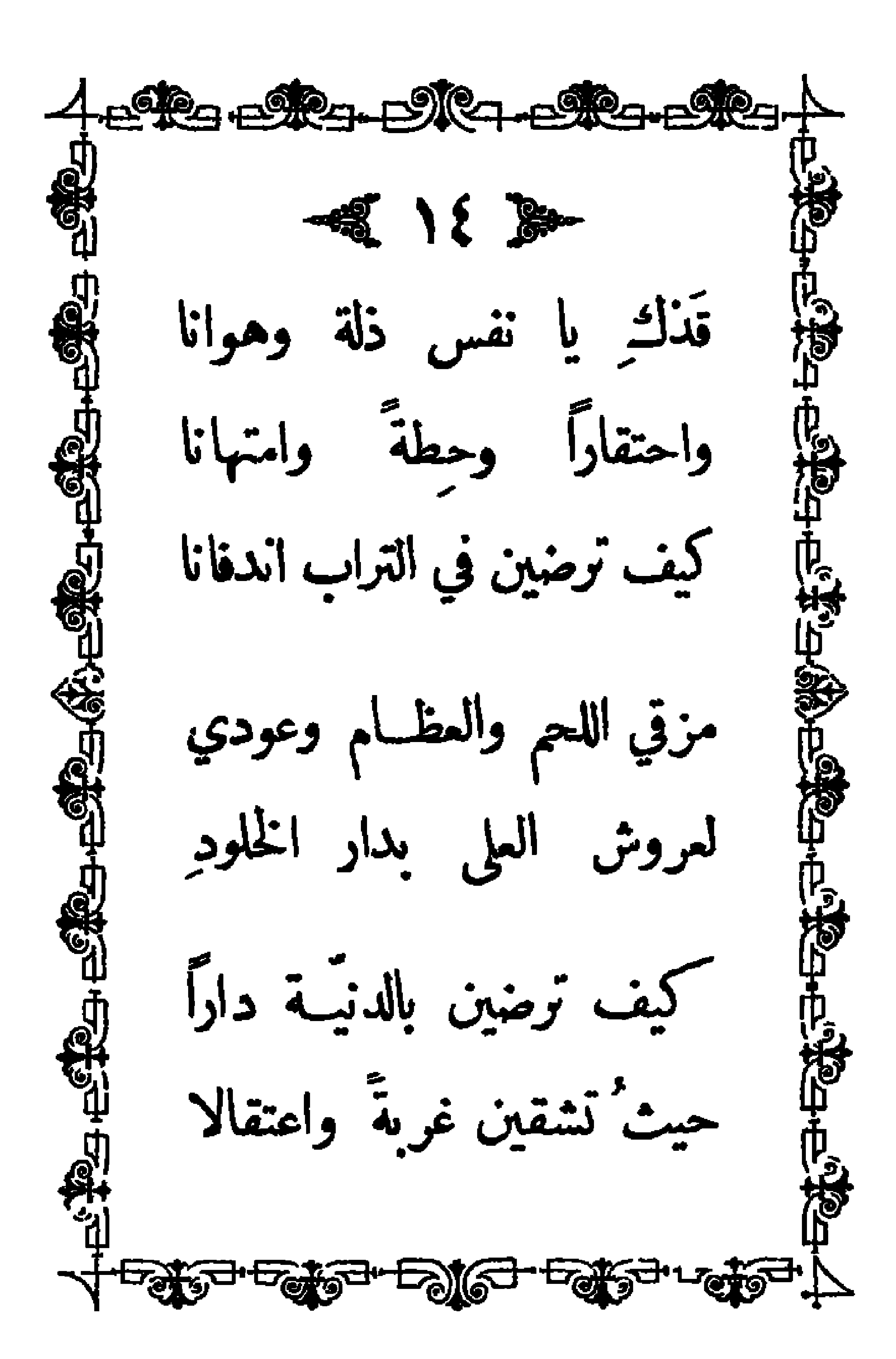


١٣

سادة الفضل والحجى والعلومِ
ومنار الهدى بليلٍ بهيمِ
مَن رُؤاهم في ساعة التهويمِ

علمونا واستغرقوا في السباتِ
وتواروا في دامس الظلماتِ

نورهم قد خبا ولما هدونا
في دياجي الآزال ضلوا ضلالا



١٤

قَذكِ يا نفس ذلة وهوانا
واحتقاراً وحِطةً وامتهانا
كيف ترضين في التراب اندفانا

مزقي اللحم والعظام وعودي
لعروش العلى بدار الخلودِ

كيف ترضين بالدنيّة داراً
حيثُ تشقين غربةً واعتقالا

١٥

ايه خيّام انما الاجسامُ
للنفوس المؤمَّرات خيامُ
ولحينٍ لهنَّ فيها مقامُ

ثم يخلينهـا الى لا مكانا
او مقرًّا او مدةً او زمانا

وتسلُّ الاطناب يسرى منونٍ
بيمينٍ تصرّم الآجالا

١٦

قلت للنفس اين ذاك القضاء
اين ذاك الجحيم اين السماء
قالت النفس يا فتى لا مراء

فيَّ في الاسرار والاقدارُ
فيَّ في الجنَّات فيَّ النارُ

ذا سؤالي وذا جوابكِ يا نفـ
س وكنت الحيران فيهِ سؤالا

١٧

كل شيء فينا ومنا يكونُ
نقطةٌ في وجودنا المسكونُ
أثرٌ من دموعنا جيحونُ

وشرارٌ من الكبود الجحيمْ .
وثوانٍ من السرور النعيمْ

فلنكن مثلما نكون ونرضَ السـ
ـوءَ حالاً او التنعّمَ حالا

١٨

صاح إنا في الكون بعض الظلال
وخيالٌ سارٍ وراءَ خيالِ
بين أيدي خلّاقه المتعالي

فهو فانوسه العجيب السحري
شمسه الشمعةُ العظيمة قادرِ

والرسوم الأنام والخلق طرّاً
مَن يحارون كالخيال انتقالا

١٩

والمجازاتِ خلِّ وابغِ الحقائق
نحن فيهِ فوارس وبيادق
بين أيدي اللعّاب وهو الخالقْ

انما الأرض رقعة الشطرنجِ
والبيوتُ البيوتُ في كل فجِّ

يذقاً إثر بيذق تترك الرقـ
ـعة حتماً وللفنا تتتالى

٢٠

ان هذي الحياة كالجوكانِ
فالأماني فيها تظلّ أماني
ونلاقي ما ليس في الحسبانِ

نحن تلك الكراتُ والخيّالُ
هو ربّ القضا وهذا المجالُ

ضربةٌ اثر ضربةٍ تعترينا
فنسلي ونعجبُ الخيّالا



٢١

فلنسلّم لربه تسليمـــــا
فهو مَن كان بالمصير عليما
منذ كانت هذه البرايا سديما

خُط ما خُط من سطور القضاء
لا تحاول إبدال ياء بباء

فبنو الياء يُلحدون شيوخاً
وبنو الباء أُلحدوا أطفالا

٢٢

والقضاءُ القضاءُ والدوّارُ

فلَكٌ كاد يعتريه الدُّوارُ

ولتلك النجوم والأقمارُ

هائمات من كل سارٍ وغادِ

كهيام العشاق في كلّ وادِ

فاليها لا تعزونَّ سعوداً

او نكوداً وعدَّها أمثالا

﴿ ٢٣ ﴾

كل شيء مسطّر مكتوبُ

وهو لوح عن الورى محجوبُ

فيهِ هذي المنى وهذي الخطوبُ

فالأواتي مقـدرات تصيرُ

والمواضي والحادثات سطورُ

ضقت ذرعاً يامرءُ بالأمر لا حو -

لَ ولا طولَ لا دهاً لا احتيالا

٢٤

ما تلاقي ان مصبحاً او ممسي
من حظوظٍ او من طوالع نحسِ
فمعدٌّ في الغيب منذ الأمسِ

وبذاك الحجاب سوف تمرُّ
حيث سرٌّ يبدو لديك وسرُّ

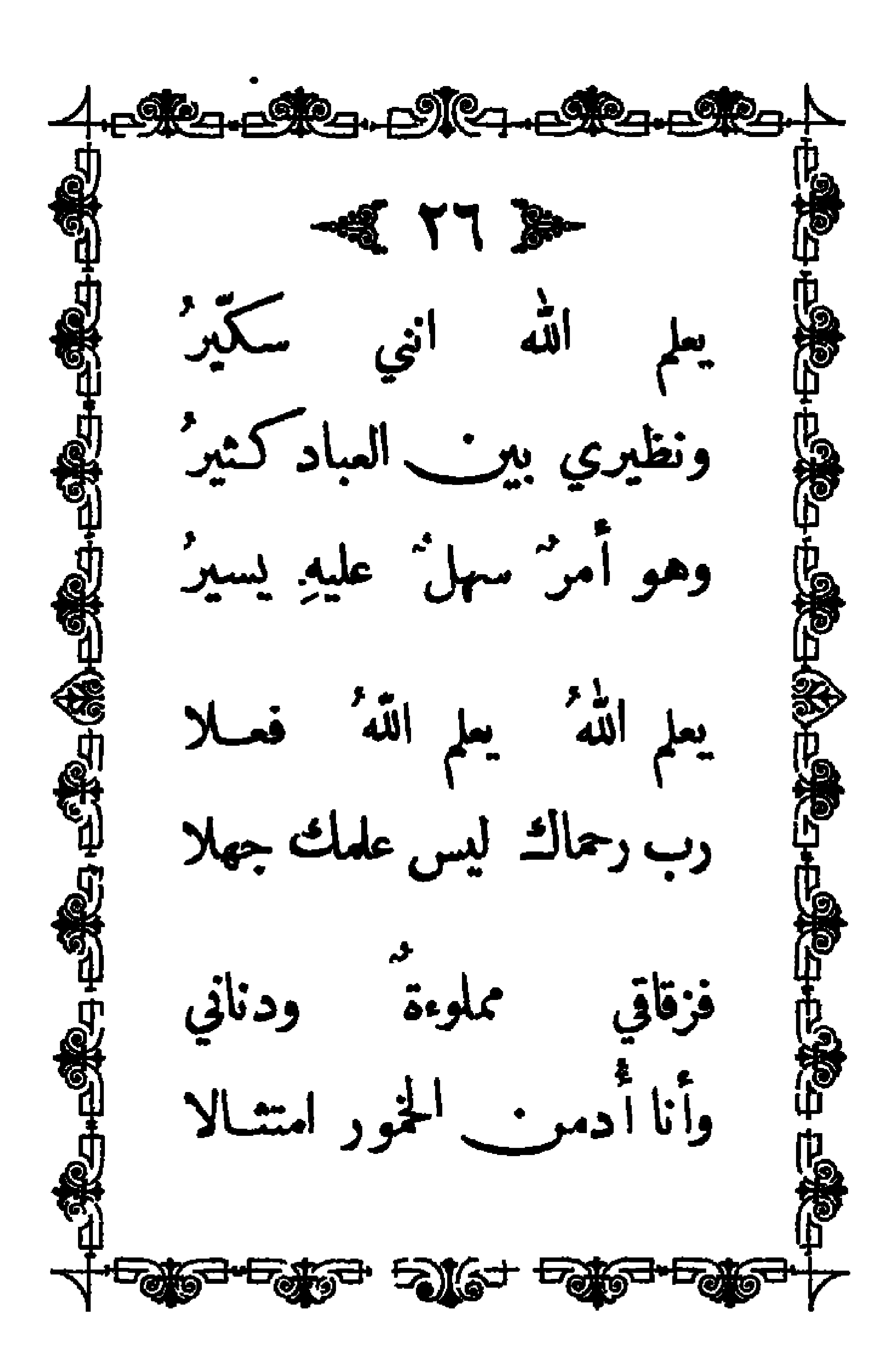
فاغتنمْ فرصة البقاء فان الـ
ـموت ما عوّد الفتى إمهالا

٢٥

قبلما أَسرج الجياد وهيّا
لعلى الشمس موكباً ذهبيّاً
وحباها بالمشتري والثريّا

قام في الغيب للقضا ديوانُ
ونصيبي ما رجّح الميزانُ

قسمتي ما ترون. فيَّ ومني
فاعلموا ان ذممتمُ الأفعالا

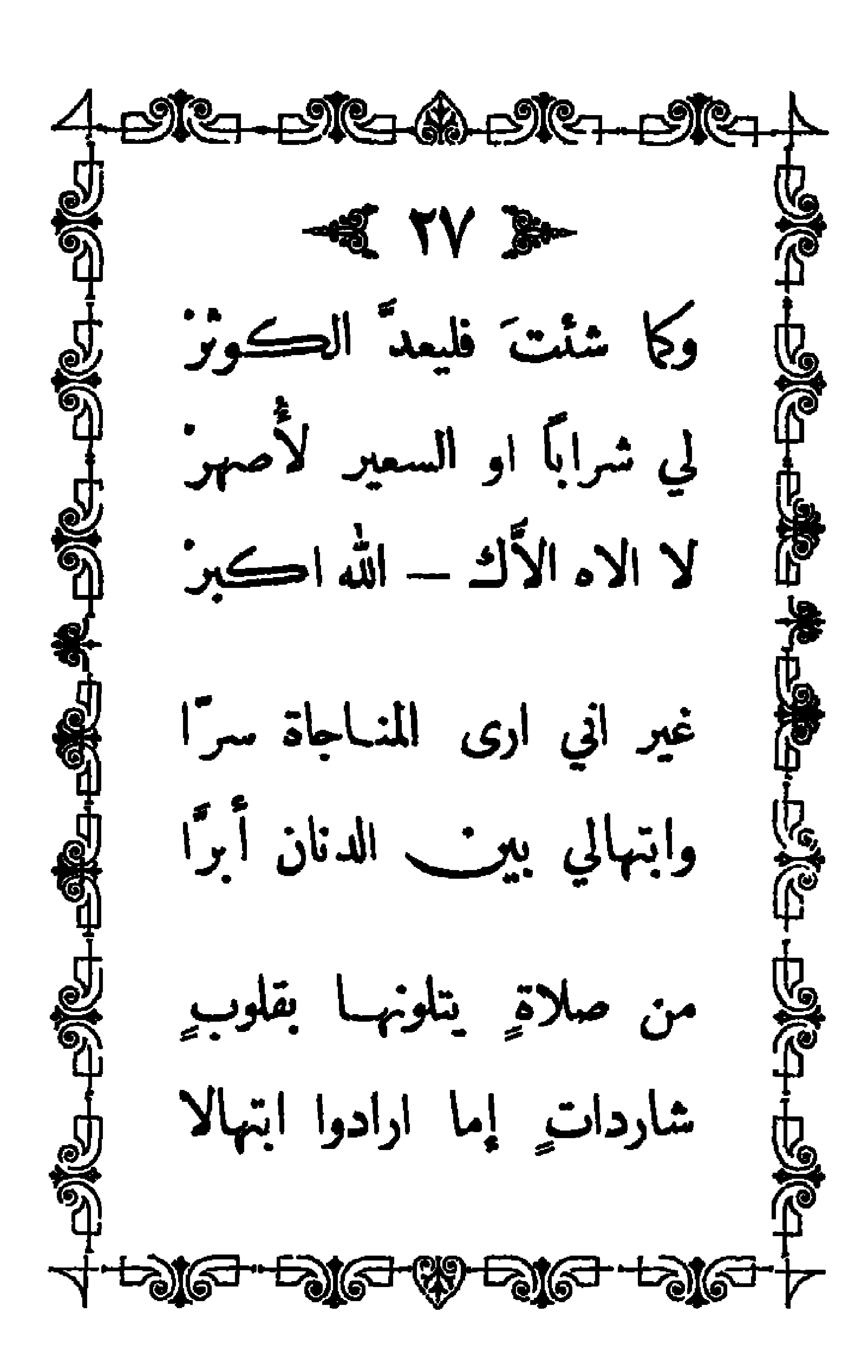


٢٦

يعلم الله انني سكّيرُ
ونظيري بين العباد كثيرُ
وهو أمرٌ سهلٌ عليهِ يسيرُ

يعلم اللهُ يعلم اللهُ فعلا
رب رحماك ليس علمك جهلا

فزقاقي مملوءةٌ ودناني
وأنا أُدمن الخمور امتثالا

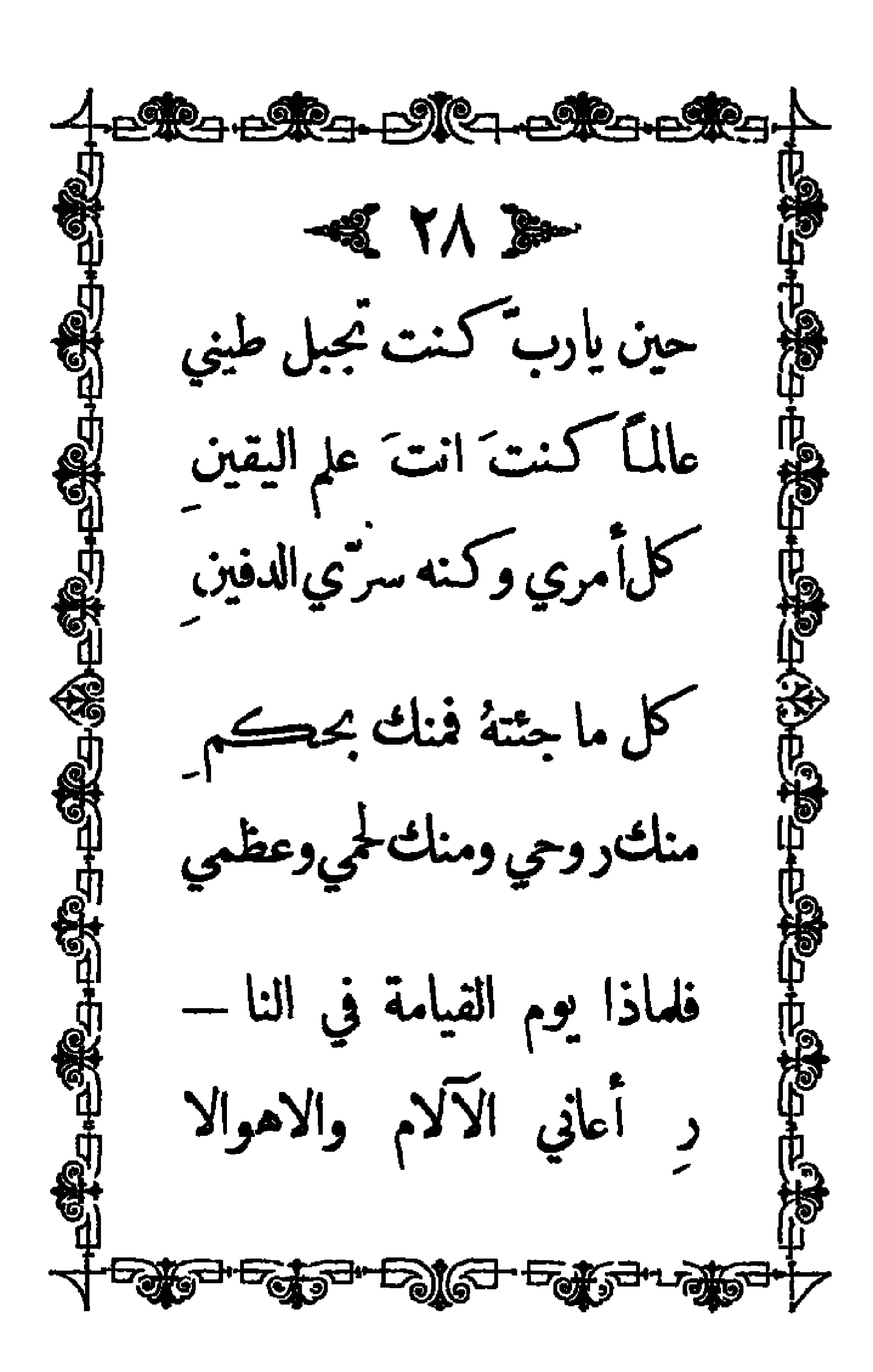


٢٧

وكما شئتَ فليعدّ الكوثرْ
لي شراباً او السعير لأُصهرْ
لا الاه الاّك — الله اكبرْ

غير اني ارى المناجاة سرّا
وابتهالي بين الدنان أبرّا

من صلاةٍ يتلونها بقلوبٍ
شارداتٍ إما ارادوا ابتهالا



٢٨

حين يا ربِّ كنت تجبل طيني
عالماً كنتَ انتَ علم اليقينِ
كل أمري وكنه سرّي الدفينِ

كل ما جئتهُ فمنك بحكمِ
منك روحي ومنك لحمي وعظمي

فلماذا يوم القيامة في النا —
رِ أعاني الآلام والاهوالا

﴿ ٢٩ ﴾

ربِّ اني عصيتُ أين عقابي
وفؤادي إثماً جناح غُرابِ
أم تُرى انتَ راحمي بثوابِ

ربِّ حاشاك ان تكون الرحيما
لتقيٍّ وان تميت الأثيما

فتكون الوافي لذي الدين ديناً
لا كريماً يعطي ندًى ونوالا

٣٠

ربِّ حولي حبائلٌ وكمانُ
وشراكٌ وانني حيرانُ
كيفما سرتُ لا هدًى لا أمانُ

فلماذا أقمتها ثم قلتا
يا ابن حوَّا إما خطوتَ قُتلتا

كل فعلٍ آتيه حكمٌ مطاعٌ
وبحكمٍ أُطيعكَ استقتالا

٣١

أنتَ يا عالماً بذات الصدورِ
ومُقيلَ العبد الكثير العثورِ
هبْ لخيَّام قبل يوم النشورِ

وازعاً زاجراً يكفّ يديهِ
عن كؤوسٍ مشعشعاتٍ لديهِ

فهو فيها يهيم كل هيامٍ
ولديها يحيي الليالي الطوالا

٣٢

ملء صدري ادواؤه والكروب
يا ندامى وهي الطبيب العجيب
فمن الخمر كيف كيف أتوب

فبأوراق كرمةٍ كفنوني
وبكرمٍ بين الأصول ادفنوني

واغسلوني بالخمر فالخمر فاقت
بصفاها ذاك الزلال الحلالا

٣٣

ولَمَنْ أمَّ حانـةً يتوضأ
فبخمرٍ أتمَّ ذاك الفرضـا
لات يومي والعمرُ سكراً تقضى

قد تهتكتُ والحياء خلعتُ
وبعذرٍ من الورى ما طمعتُ

فليلمني العـذال لوماً فاني
ما عذرتُ اللوّام والعذالا

٣٤

كم صباحٍ فيهِ أتوب وأمسي
وجليسي ساقٍ يدور بكأسِ
فرجائي في توبةٍ صنو يأسي

ووعودي ليست سحاباً خلَّبْ
قاضنيها تلفٍ المدامة تُسكبْ

غب عذولي كيف انتهائي وفصل الـ
ـورد بعد الهجران جاد وصالا

٣٥

إيهِ سفر الحياة آن اختتامُكْ
إيهِ خيّامُ قد تداعت خيامكْ
وتدانت من حدها أيامكْ

وليالي الربيع كنّ قصارا
وهزار الشباب غنّى وطارا

ياهزار الشباب لو كنتُ أدري
منك هذا لسمتك الأغلالا

٣٦

هل تُرى بعد هذه الصحراء

من مَعينٍ يروي غليل الظِّماء

فنعـاني مسيرنا برجاء

آهِ لو كنت بعد ألفٍ وألفِ

من حؤولٍ تقفو خُطى يوم حتفي

من ترابي أطلُّ كالنبت حياً

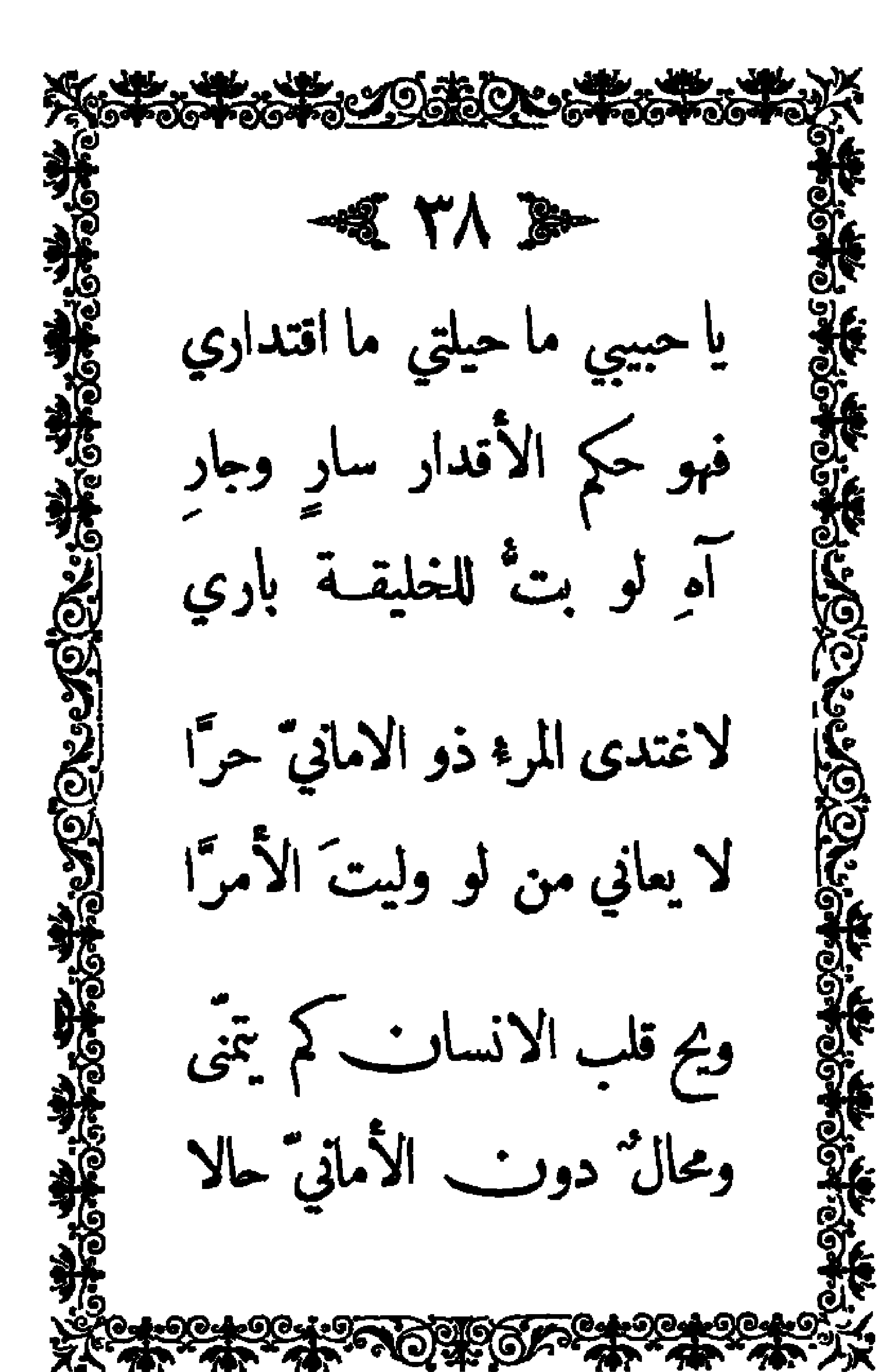
فأحيي الربوع والأطلالا

٣٧

وبنفسي أمنيـة للمنيـه
آهِ لو كنت يوم خلق البريه
واقفاً عن يمينهِ العلويه

لتضرعتُ قائلاً لا يقدَّرْ
ليَ وجودٌ وليُمحَ لي اسمٌ تسطرْ

أو فقدِّرْ يا ربِّ لي عيش مكفيـ
ـيٍّ هموماً تقطع الأوصالا



٣٨

يا حبيبي ما حيلتي ما اقتداري

فهو حكم الأقدار سارٍ وجارِ

آهِ لو بتُّ للخليقة باري

لاغتدى المرء ذو الاماني حرًّا

لا يعاني من لو وليتَ الأمرّا

ويح قلب الانسان كم يتمنّى

ومحالٌ دون الأمانيّ حالا



٣٩

يا حبيبي مَن لي سواكَ ومَن لي
بعليمٍ ينير ظلمة جهلي
أم غدٌ غامضٌ ومثليَ مثلي

فأدرْها وانظر أخاكَ جمالا
يتهادى بين الدراري اختيالا

ليت شعري بدرَ السماء أتحيا
لترى وجهكَ الجميل هلالا

٤٠

يا نديمي قد آن موتُ النديمِ
فاذكرني ذكر الصديق القديمِ
وابكيني بدمع بنت الكرومِ

وبكأس الرحيق قف فوق قبري
واسكب الخمر فوق عشبٍ وزهرِ

فرفاتي اذ ذاك زهرٌ وعشبٌ
وانا الشيء كان كوناً وحالا



القسم الاول

الفاتحة مستمدة من ثلاث رباعيات مختلفة تجدها في مطلع ثلاث من النسخ الخطية وهي من أجمل أقواله التي يشير بها الى إسلامه وقيامه على عبادة الواحد الأحد

٢

النيروز كلمة فارسية مركبة معناها يوم جديد . وعيد النيروز عند الفرس كعيد رأس السنة عند كل امة . وهو يقع في أول فصل الربيع

أما قوله : لاحت في دوحنا يد موسى — فاشارة الى الآية : ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين . وفي وادي خراسان نوع من الشجر يزهر دفعة واحدة مثل شجر اللوز عندنا ويكون أول الاشجار إزهاراً . والإزهار من بشائر الربيع

أما قوله : مرَّت بالروض أنفاس عيسى – فاشارة الى ما ورد في الحديث من ان عيسى كان في صغره يلعب مع أترابهِ ويصنع لهم عصافير من التراب وينفخ فيها فتطير كأن نفَسهُ أكسبها الحياة . فمرور أنفاسه بالروض دلالة على بزوغ النبات وظهور الزهر

٣

المراد داوود بن سليمان الحكيم . وهو عند العرب والفرس ربّ الغناء . وبهِ يضرب المثل في الصوت كيوسف في الحسن وأيوب في الصبر

أما البلبل فهو الطائر الموصوف بطلاقة اللسان . وشعراء الفرس متقدموهم ومتأخروهم كثيراً ما يذكرونهُ كعاشق متيم هائم في حب الورد

٥

بلخ كانت احدى العواصم في ولاية خراسان . ونيسابور مسقط رأس الخيام (انظر المقدمة ص ٥)

جمشيد وكايوكباد وزال من أبطال الفرس وملوكهم الكبار واخبارهم مسرودة في الشاهنامة للفردوسي

٧

رستم هو عند الفرس كهرقل عند اليونان اي انهُ مثال البأس وحب القتال وهو ابن زال المذكور آنفاً . وحاتم هو العربي الطائي الطائر الصيت بكرمه

١٠

القيان جمع قَينة وهي المغنّية . ويريد بحور تلك الجنان « الحور العين » المذكورات في سورة الطور من القرآن الشريف

١٤

بهرام احد سلاطين الفرس القدماء وكان مغرماً بصيد بقر الوحش

١٥

المراد بمناداة الحمام يوسفاً خلوّ القصر من السكان بعد ما كان آهلاً بهم . والعرب يعبرون عن سجع الحمام بالتهديل اذ يقولون انهُ كان للحمام ولد يدعى « هديل » وفُقد فالحمام ينشده حين يسجع

٢٤

زمزم بئر حية عند الكعبة . والمعين الماء الجاري . ومراده ان كل ماء يغيض في الأرض ويحتجب ولو كان ماء زمزم المقدّس. وكذلك الناس فكلهم يموت ويحجبه التراب

٢٩

الاربع اي المواد الاربع (التراب والهواء والنار والماء) . والسبع سبع الطباق او السماوات . وبنو الأربع والسبع الناس

٣٣

كان السقاة في ايام الخيام يريقون شيئاً من الكأس قبل تقديمها الى الشارب

٤٠

لما كانت قيمة الألف في حساب الجمّل واحداً (١) فهي رمز الى وحدة الله سبحانه . وألِفْ كفت في الفارسية مثل مألوف

النشيد الثاني

٢

اتضح للخيام ان اندثار الجسم بعد الموت يكاد يكون غاية ما يمكن للانسان أن يدركه من اسرار الكون والوجود . ولذلك تراه يشتفي من المدّعين استطلاع ما وراء الحجاب واستجلاء غوامض الآزال والآباد

٣

عاش الخيام في ايام اغراق الصوفيين وغلوّهم في آرائهم الدينية . ولذلك فلا عجب ان نسب الى نفسه ضياع العقل والخلوّ من الدين والميل الى الخمرة عنهما.وكأني به فضّل الجنون والكفر على الرياء — ان الله لا يحب المرائين

وبنت الكرم الخمرة . وقوله ان صدر الكرم يضم رجالا أي ان تربته تحوي الوفاً من جثث الموتى

٧

انقسام الشعوب الى ٧٢ ملة قول جارٍ مثلاً في بلاد الفرس . وقد ذكر أحد شراح الرباعيات كلاماً مروياً عن الرسول ما آله : ان امتي ستنقسم الى ثلاث وسبعين ملة جميعها تدخل النار الاّ واحدة . والخيام هنا يشير الى الشيع والطوائف على اختلاف نزعاتها ويضرب على نفس الوتر الذي يضرب عليه في السباعيات السابقة

٩

الصديان العطشان . والماء الزلال الصافي . والسراب ما تراه نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء يلصق بالارض وهو غير الآل الذي يُرى في طرفي النهار كأنه بين الارض والسماء

١١

الربّان رئيس الملاّحة والجماعة على الاطلاق . والمراد بهِ هنا رئيس اليهود الديني أي حاخامهم . والوعيد الوعد لكن

بالشر فهو التهديد . والاشارة بالوعد هنا الى الجنة و بالوعيد الى دخول النار

١٧

المسكون العالَم . وجيحون نهر البكاء او نهر الدموع

١٩

الفارس والبيذق قطعتان (حجران) في لعبة الشطرنج

٢٠

الجوكان اسم لعبة فارسية وهي لعبة « الكولف » المغرم بها الانكليز اليوم وقد أخذوها عن الفرس

روح الخيّام في رباعياته [1]

بقلم

« صاحب النظرات »

صديقي الفاضل وديع افندي البستاني

الآن فرغت من قراءة سباعياتك الجميلة التي ترجمت فيها رباعيات عمر الخيام فلم أرَ بدًّا من أن أكتب اليك كلمة اصوّر لك فيها ما استحالت اليهِ نفسي من الصور عند قراءتها وما لا يزال باقياً عندي من الأثر بعد الفراغ منها فاقول :

اني وقفت بهـا كما يقف مسافر ضلَّ بهِ سبيلهُ في فلوات الأرض ومجاهلها بواد معشوشب زاهر في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران، فما خطوت فيهِ بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوار بيضاء ، وورود حمراء ، والوان من النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، وغدران مسلسلة مطردة تنبسط في تلك الديباجة الخضراء ، تبسّط الشهُب الثاقبة في

(١) انظر الديباجة ص ٤

الديباجة الزرقاء ، واسراب من الحمائم والعصافير والكراكى والبلابل تتطاير من فرع الى فرع ، وتتناثر من غصنٍ الى غصن ، وتجتمع لتفترق ثم تفترق لتجتمع ، وتقتتل مرة وتتلاءم أخرى ، وتصعد حتى تلامس باجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط فتقبّل صفحة الماء ، ولا تزال تغرّد فى صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات ، متنوّع اللهجات ، فيتألف من ذلك الاختلاف نغمٌ بديع لا أعرف له شبيهاً الاّ تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها فى نغم الحور الحسان ، فى فراديس الجنان

فلم أزل أتقلّب فى أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجرّ ذيول تلك الجداول البيضاء ، واقلّب طرفى فلا أرى رائحاً ولا غادياً ، وانسمّع فلا اسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بى الحظ على دوحة فرعاء ، ماثلة على رأس بعض الجداول ، قد اضطجع فى ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم ، رجل هانىء باسم ، يقرأ تارةً سورة الجمـال فى وجه فتاة جالسة بين يديهِ ، ويقبّل أخرى ثغر الكأس التى فى يده ، ويترنم فيما بين هذا وذاك بمقطعات شعرية بديعة ، يمثل فيهـا جمال الطبيعة وهدوءها ، وسعادة الوحدة وهناءها ، ويطير باجنحة خياله فى عالم بديع من عوالم الغيب كأنما يريد أن يفرَّ بنفسهِ من هذا العالم المملوء

بالآلام والاحزان ويحاول ان يطارد كل خاطر من خاطرات الهموم التى تتطاير حول قلبه ليستكمل لذته فى العيش ، ويتغلغل فى اعماق المتعة بوحدته وكتابه ، وكأسه وفتاته

فان مرَّ بخاطره ذكر الملوك والامراء وما ينعمون بهِ من عزٍّ وسلطان ولذة واستمتاع قال : ما لى وللملك والسلطان ، والحاشية والجند والقصور الشماء ، والجنان الفيحاء . هنالك المحنة والشقاء ، والفتنة الشعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء والاشلاء ، والعويل والبكاء . وهنا الراحة والسكون فى ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، بين هذين الثغرين ثغر الفتاة وثغر الكأس ، وذينك الصديقين ، هذا الكتاب المفتوح وذلك الغصن المظل ، كل ما يقدّر السعداء لأنفسهم من غبطة فى الحياة وهناء

وان ذكر الآخرة وما أعدّ الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال : ان من العجز ان أبيع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول . أنا اليوم موجود فلا بدَّ ان أستمتع بمتعة الوجود أما الغد فلا علم لى بهِ ولا بما قُدّر لى فيهِ . وعسير عليَّ ان أتصور اننا معشر الاحياء كنوز من الذهب نُدفن اليوم فى باطن الأرض لينبش عنا النابشون غداً

ثم يعود الى نفسه مستغفراً الله من ذنبهِ فى شكه وارتيابه فيقول : اللهمّ انك تعلم انى ما كفرتُ بك مذ آمنت ، ولا أضمرت لك فى قلبي غير ما يضمر لك المؤمنون الموحّدون . فاغفر لى آثامى وذنوبى ، فانى ما أذنبت عناداً لك ، ولا تمرّداً عليك . ولكنها الكأس غلبتنى على أمرى ، وحالت بينى وبين عقلى . وأنت أجلّ من ان تقاضينى كما يقاضى الدائن مدينه ، لأنك كريم والكريم يرتجل المنحة ارتجالاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسبغ نعمته حتى على العصاة والمذنبين

واحياناً يستشعر قلبهُ الرحمة بالعباد فيبكى احياءهم واموآتهم ويقول مخاطباً فتاته رويداً ايتها الفتاة فى خطواتك على هذه الأعشاب فلعلّ جذورها تستمدّ حياتها من كبد فتاة مثلك ، كان لها قلب مثل قلبكِ ، ووجدان مثل وجدانكِ ، وجمال ورواء مثل جمالك وروائك ، ثم ضرب الدهر ضرباته فاذا أنتِ فى غلالة هذه الأسعة البيضاء ، واذا هى فى دجنّة تلك الأعماق السوداء . فارفقى بها واسكبى هذه الفضلة من كأسكِ على تربتها علها تتسرّب الى صدرها فتطفئ ذلك اللاعج الذى يتأجج بين جوانحها

ثمّ يتخيل أحيـاناً كأنهُ واقف أمام رجل خزّاف يحرق

آنيتهُ فى تثوره فيقول له : رحمة أيها الخزّاف بهذه الحمأة التى تملها فى هذه النار فقد كانت بالأمس انساناً مثلك ، وستكون فى مستقبل الأيام حمأةً مثلها . وربما ساقك الدهر الى يدى خزّاف تحتاج الى رحمتهِ ورفقه . فارفق بها اليوم يرفقْ بك خزّافك غداً

وآونةً يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعى على السعداء سعادتهم ويذكرهم بما آلت اليه حال الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ، من خراب دورهم ، وعمران قبورهم ، وغروب شموسهم واندثار آثارهم

ثم ينتقل من ذلك الى البكاء على نفسه وترقب ذلك اليوم الذى تصوّح فيهِ زهرته ، وتنطفئ جذوته ، وتضعف منّتهُ ، ويمحو نهارُ مشيبه ليل شبابه فيزحف الى قبره شيئاً فشيئاً ، حتى يتردّى فيهِ ، فيعود كما كان سرًّا مكتوماً في ضمائر الاقدار وذرّة هائمة في مجاهل الاكوان

وهكذا ما زال ينتقل من عبرة بليغة ، الى عظة بديعة ، ومن خيال جميل ، الى تشبيه رقيق ، ومن وصف ناطق ، الى تمثيل صادق ، حتى اصبحت اعتقد ان هذه النفس التى تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل ، مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون

بارضهِ وسمائهِ ، وليله ونهاره ، وناطقهِ وصامتهِ ، وصادحهِ وباغمه

وان فخار الاعراب بمتنبيها ومعريها ، والفرنسة بلامرتينها وفيكتورها ، والسكسون بشكسبيرها وملتونها ، والطليان بدانتيها ، والالمان بجيتها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميرها ، ومصر القديمة بنتاؤورها ، ومصر الحديثة باحمدها ، لا يقل عن فخار فارس بخيّامها

هنالك شكرت لك ايها البستانى الصغير نعمتك التى اسديتها الىَّ والى ابناء الضاد عامة بترجمة هذه الرباعيات ترجمة شعرية بديعة سددت بها من اللغة العربية ثغرة قد سدَّ مثلها من قبلك البستانى الكبير فى ترجمة الياذة هوميروس . وهنالك لثمت فى يدك البيضاء هذه الزهرة الجميلة التى ستنبت حولها الزهرات ، والثمرة الحلوة التى ستتبعها الثمرات انشاء الله تعالى

مصطفى لطفى المنفلوطى

مصر ٣٠ دسمبر سنة ١٩١١